المبحث الأول: مصطلحات التصوّف والصوفيّة

أولا: مصطلحات التصوّف

إذا كان التصوّف علما قائما بذاته، فهذا يعني أن يكون له منهجا يستوعب كافة قضاياه ومسائله، وكذا جملة من المصطلحات التي تعطيه الفرادة والتميّز، شأنه في ذلك شأن سائر العلوم والمعارف، فكان للسّادة الصوفيّة مصطلحاتهم الخاصة بهم، قاصدين بها الولوج إلى عوالم النفس البشرية والكشف عن كوامن أسرارها والسمو بها إلى ذلك الفيض الإلهي من ذلك ندرج:

أ- أهل الصّفّة:

الصفّة مكان مرتفع في مؤخرة المسجد النبوي في المدينة المنورة[1] ويحبذ جمهرة فقهاء الصوفيّة أن هناك علاقة قوية بين اللفظ صوفي وبين أهل الصّفّة "وهم فقراء المسلمين في الصّدر الأول الإسلامي". قد انقطعوا للعبادة وملازمة مسجد الرسول –صلى الله عليه وسلم– في المدينة وعاشوا على صدقات أغنياء المسلمين عليهم[2].

و يذهب فريق من البحّاثة إلى القول بأن الصوفيّة نسبة إلى أهل الصُفّة، وهم جماعة من المؤمنين من أفقر الناس وأشدهم بؤسا ومعاناة، وأقلهم حسبا ونسبا، وإن كانوا أشدهم ورعا وتقوى، لم يجدوا عملا ولا مأوى، فقام النبي بجمعهم في ناحية خارج مسجد على شكل زاوية. نزلت فيهم الآية قال الله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾.[3] ومن

[1]- زين العابدين شمس الدين نجم، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، دار الكتب المصرية، ط1، 2006م، ص89.
[2]- عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفيّة ومدارسها، مكتبة مدبولي، دط، 1999، ص22.
[3]- سورة البقرة، الآية:273.

أشهرهم بلال الحبشي وعمار بن ياسر وصهيب الرومي وسلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري وعبد الله بن مسعود وأبو هريرة[1].

قال الشبلي –رحمه الله– "إن الصوفيّة هم من بقايا أهل الصُّفّة".

و قال قوم: "إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة، الذين كانوا على عهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم.

فقد آثر أهل الصفة حياة الفقر، مناجاة لله وكذا بغية مغادرة عالم الأدران والشوائب والسمو بالنّفس في مدارج الصفاء الروحي.

ب– الصُّوفيّ:

من التصوّف ولبس الصوف، وقيل نسبة إلى صفة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلّم، وقيل من الصَّفاء كما قيل من الصف، أي أنهم من الصف الأول بقلوبهم وعموما هم رجال أفرغوا أنفسهم للعبادة والتفقه، ومن شروط انخراطهم في هذا المسلك ألاَّ يكون دخولهم الخوانق إلا لسد الرمق للتقوى على العبادة، وألا يتخذوا من الخوانق "أسبابا" والدلوق المرقعة طرائق للدنيا والزور وأكل الحشيش. وعلى الصوفي احترام شرط الواقف، فمثلا: اشترط الأمير شيخو على رواد خانقاه بالصليبة ألا يتزوج منهم إلا طائفة حددها من كل مذهب.[2]

ذهب المتصوف أبو الحسين النّوري، والذي يرفض أن يكون للتصوف قواعد، أو أن يصبح علما يمكن للمرء أن يحصله بالتعلم: "الصوفي من لا يتعلق به شيء ولا يتعلق بشيء، ليس التصوف رسما ولا علما، ولكنه خلق، لأنه لو كان رسما لحصل بالمجاهدة، ولو كان علما لحصل بالتعليم، ولكنه تخلق بأخلاق الله"[3].

[1]- سفيان زدادقة، الحقيقة والسراب قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعا وممارسة، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، ط1، 2008م، ص49.

[2]- زين العابدين شمس الدين نجم، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ص356، ص357.

[3]- سفيان زدادقة، الحقيقة والسراب قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس، ص63.

الصّوفيّ من أقبلت عليه الدنيا بزخرفها، لكنه أشاح بوجهه عنها، مؤثرا ربه وعبادته عليها، فالأولى بداهة هو البحث عن سر هذا النزوع لدى الإنسان أيا كان دينه ومعتقده نحو التصوف في ذاته وتفكيره[1].

فاعتماد ارتداء الملابس الصوفيّة التي تميز الصوفيين والتي تسمى بـ"الخرقة"، كإشارة للزهد والتقشف، ونبذ ملذات الحياة، ليس بالأمر المستحدث، إذ أنه عرف في هذه السنوات التي سبقت وجود المذهب الصوفي، والنظرية الصوفيّة حول التطور الرّوحي مبنية على إنكار الذات إنكارا تاما، وإذابة الذات كليا في التفكير بالله[2].

فالمتصوف إنسان متعبد سما بنفسه في عالم الروح بعيدا عن تلك الظواهر والماديات من خلال مكابدته للوصول إلى بواطن العالم الآخر وتحقيق الاتصال به ولو بصورة نفسية.

جـ- الأدب:

الأدب مقصود به أدب الشريعة، وكل ما من شأنه إرساء وتوسيع ذلك المنحى الأخلاقي التأديبي، وكل ما يندرج في بوتقة الواجبات والمعاملات وكذا الحقوق. مصداقا لقوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾[3] وقوله أيضا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[4]

حفظ الأدب في الانبساط حجاب عن الشهود فإن القلب مصروف لحفظ الأدب وهو واجب ولهذا قيل: اقعد على البساط وإياك والانبساط.

وقال العارف: دخلت البساط فزللت فطرت، فإذا رد صاحب الزَّلة بعد التوبة إلى البساط فأنه لا تجد تلك اللحظة التي كان يعرفها، لأن الكتابة عن المحو ليست كالكتابة على غير

[1]- المرجع نفسه، ص56.
[2]- سيّد أمير علي، روح الإسلام، نقلا إلى العربية عمر الديراوي، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، 1980م، ص433.
[3]- سورة النجم، الآية:17.
[4]-سورة التحريم، الآية:6.

المحو، فإنه أصفى وأخلص[1] وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ ﴾[2].

كما قيل في المعنى:

و كنت إذا ما جئت أدنيت مجلسي ووجهك من ماء البشاشة يقطر

فمن لي بالعين التي كنت مرة إليَّ بها في سالف الدهر تنظر[3]

عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله عزّ وجل أدبني فأحسن تأديبي".[4]

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "حق الولد على والده: أن يحسن إسمه، ويحسن مرضعه، ويحسن أدبه"[5]. فعلى الصوفي أن يكون متأدبا في طلبه ومراعاة حق الله فيها ومراقبة الله له.

د-الفناء:

يستولى الفناء على العارف فيخرج بذلك من كل الحدود والشعور والحس وكذا جميع مدركاته ووجوده، فيتجلى له سرائر الفيض الإلهي القدسي، وهو أمر خارج عن العقل، ومرد إدراكه إلى الصفاء الرّوحاني الذي يعتري المريد.

أشار قوم بالفناء إلى سقوط الأوصاف الذميمة، وأشاروا بالبقاء إلى بروز الأوصاف المحمودة[6]. فالفناء مصطلح معروف عند أرباب التصّوف، وهو عبارة عن ظهور العظمة

[1]- محي الدين محمد بن عربي، عنقاء مغرب في ختم الأولياء وشمس المغرب، اعتنى بها إبراهيم الكيالي الزرقاوي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 2005م، ص112.

[2]- سورة الجاثية، الآية:21.

[3]- هذان البيتان هما للشاعر العباسي الوأواء الدمشقي محمد بن أحمد العناني المتوفي سنة 385هـ.

[4]- رواه ابن مسعود، وأخرجه بن السعداني في أدب الإملاء، وصححه السيوطي في الجامع الصغير 310/1، ولكن المناوي ضعفه في الفيض 244/1، والسخاوي في المقاصد.

[5]- الحديث: أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وضعفه السيوطي في الجامع الصغير رقم 3746.

[6]- أبو القاسم عبد الكريم القشيري النيسابوري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقيق وإعداد معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، د ط، 2007، ص 67.

والجلال، ويعبرون عنه بالاضمحلال، وفيه تكلّ العبارات، وتضييع الإشارات، وتخشع الأصوات.

قال تعالى: ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾[1]. لأنه إذا فني العبد عن الخلق والهوى والنفس، والإرادة والأماني، دنيا وأخرى ولم يبق إلا الله عز وجل، كما كان[2]

وقد عبر عنه الشيخ بن مصطفى العلاوي[3] في أشعاره. قال رضي الله عنه:

لما فنيت الفنا ما بقيت إلا أنا

في الحس وفي المعنى أنا الطالب المطلوب

يقول الحلاج: "أنا الحق الذي لا يغير ذاته أمر الزمان، وما في الجبة إلا الله".

فالفناء سقوط الأوصاف المذمومة، والفناء فناءان أحدهما ما ذكر، وهو بكثرة الرياضة، والثاني عدم الإحساس بعالم الملك والملكوت[4].

فالفناء أن يفنى عن الحظوظ، فلا يكون له في شيء حظ، بل يفنى عن الأشياء كلها شغلا بمن فني فيه[5]. فالفناء ترك كل ما من شأنه أن يبعث في النفس الخصال السيئة، وبعث الخصال الحميدة، والصفات النبيلة، ويتم ذلك باستغراق العارف في عظمة الخالق واستهلاكه في عوالم المعرفة والحق.

هـ-البقاء:

البقاء هو ظهور الخصال الحميدة والأخلاق النبيلة فهذه الأخيرة لا تتأتى إلا بمجاهدة الإنسان لنفسه وطرد كل الأفعال الذميمة كالحقد والكراهية ونفي كل سفاسف الأمور من قلبه وتهذيب أخلاقه وتحسينها، فإن فني عن الأخلاق السيئة بقي على المحبة والصدق

[1]- سورة النبأ، الآية:38.

[2]- أحمد بن مصطفى العلاوي، معراج السالكين ونهاية الواصلين، المطبعة العلاوية، مستغانم، ط2، 1992م، ص11.

[3]- هو المربي الكبير والمرشد الحكيم والقطب الكبير الشيخ "أحمد بن محمد بن أحمد"، المعروف بالقاضي بن محمد، المشهور بأبي شنتوف، ابن الوالي الصالح الملقب "بمدبوغ الجبهة" ابن الحاج علي، له كتاب "المنح القدوسيّة" أمده الله بفيوضاته، وأجرى الحكمة من قلبه على لسانه.

[4]- قدور رحماني، أوراق حول الشعر والتصوف مع قاموس بأهم مصطلحات التصوف، البديع للنشر والخدمات الإعلامية، القبة- الجزائر، دط، دت، ص181.

[5]- المرجع نفسه، ص182.

والإخلاص ومن استولى عليه سلطان الحق حتى لم يشهد أية بدائل، فقد فني عن سائر الخلق وسقيم الأفعال، وبقي بالحق وعلى عظمة المولى عز وجل.

وهو رؤية العبد قيام الله على كل شيء. وهو نسبتك إلى الحق وإضافتك إليه.

إذا رأيت قيام الله جلّ على كل النّفوس بما فيها من الأثر

ذاك البقاء الذي قال الرّجال به وأنت باق به إن كنت ذا نظر[1]

قال الخرّاز: البقاء هو الحضور مع الحقّ[2].

أشار قوم بالفناء إلى سقوط الأوصاف الذميمة، وأشاروا بالبقاء إلى بروز الأوصاف المحمودة، إذا كان العبد لا تخلو من هذين النوعين من الأوصاف فمن المعلوم أنه إذا لم يوجد عند الإنسان أحد القسمين وجد الآخر لا محالة[3].

وكما هو معلوم أن الإنسان تطبع حياته سلوكات وأفعال من شأنها أن تعطيه تلك الشخصية وكذا تلك السمات.

و-السّكر:

السّكر لا يكون إلا للخواص من العباد، وهو عدم التمييز بين الموجودات وذلك لاستيلاء تلك السمات الجمالية الخلاقة، وكذا الصفات الكمالية على العبد هذا الأخير على الرغم من إدراكاته ورؤاه لا يمكنه رؤية الحق.

لهذه الصِّفَة مصطلحها الذي نجده مبثوثا في المظانّ التي عالجت جوانب من المصطلحات الصّوفيّة، والتي من أشهرها تداولا كتاب عبد المنعم الحفني الذي يقول وهو يعرف السُّكر بأنه "سكر يلحق سر المحب في مشاهدة جمال المحبوب فجأة، لأن روحانية الإنسان التي هي جوهر العقل لما انجذبت إلى جمال المحبوب، بعد شعاع العقل عن

[1]- محي الدين بن عربي، الفتوحات، ج4، ص215 ،217.
[2]- قدور رحماني، أوراق حول الشعر والتصوف مع قاموس بأهم المصطلحات الصوفية، ص151.
[3]-أبو القاسم عبد الكريم القشيري النيسابوري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقيق وإعداد معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، دط، 2007م، ص67.

النفس، وذهل الحس عن المحسوس وألم الباطن فرح ونشاط وهزة وانبساط لتباعده عن عالم التفرقة، وأصلب السر دهش وولـه وهيجان لتحير نظره في شهود جمال الحقّ، وتسمّى هذه الحالة سكراً لمشاركتها السكر الظاهر في الأوصاف المذكورة.[1]

ز-الصّحـو:

الصّحو هو العودة إلى الإحساس بعد الغيبة، والتي تصب والسكر في مجرى واحد، من حيث ذلك الفزع والخوف الذي يعتريهم.

و هو نقيض السّكر وقرينه في الآن ذاته، لأن كل سكر صحوا، وكل غيبوبة استيقاظا إلا غيبوبة الموت، وهذا التعريف الذي نخوض فيه الآن ليس تعريفا صوفيا، لأن الصوفيّة يرون أن الصحو هو رجوع العارف إلى الإحساس بعد غيبته وزوال إحساسه، وعكسه السّكر ومعناهما قريب من معنى الحضور والصّحو حادث والحضور على الدوام.

والصحو والسكر أقوى وأتم وأقهر من الحضور والغيبة[2].

الصحو رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة بوارد قوي.

ومعنى الصّحو أنه ينكشف له حق الله في الأمور التي إستفادها في حال سكره. فيعلم عند صحوه ما ينبغي أن يذاع منها في العموم والخصوص، وما ينبغي أن يستر[3].

و الصّحو والسّكر ينمان أو يكشفان إلى شيء من التفرقة والصحو يكون بحسب وقدر السكر فإن كان على وجه من الحق فإن الصحو يكون كذلك.

ثانيا: التّجربة الصّوفيّة

النّفس عنصر مهم لدى الإنسان، هذا الأخير مركب من نفس وبدن، وهو مسؤول عن تسويتها بالتربية، ونظرا للأهمية التي تحظى بها النفس كانت العديد من الآيات الداعية إلى

[1]- محمد مرتاض، التجربة الصوفيّة عند شعراء المغرب العربي في الخمسية الهجرية الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون- الجزائر، دط، 2009م، ص47.

[2]- محمد مرتاض، التجربة الصوفيّة عند شعراء المغرب العربي في الخمسية الهجرية الثانية، ص49.

[3]- قدور رحماني، أوراق حول الشعر والتصوف مع قاموس بأهم مصطلحات التصوف، ص175.

ذلك[1]. يقول المولى عز وجل:﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[2].

طالما كانت التّجربة الصّوفيّة ذلك البحث المضني الذي حمل صنوفا شتى من الحيرة والتساؤل عن ذلك السر الكوني العظيم، ذلك البحث عن سرائر الأبدان، عالم الفيض الإلهي، والصّفاء الروحي بالدرجة الأولى، فكانت ولا زالت التجربة الصوفيّة تجربة رائدة ومميزة جدا، لولوجها غياهب العوالم ومكنوناتها، عالم الذات وما تحمله من رؤى عميقة قصد السادة الصوفيّة سبر أغوارها والوقوف على حقائقها.

أ- ظهور التصوّف الإسلاميّ:

يشكل التصوّف الإسلاميّ الذي بدأت أولى بوادره في الظهور في القرن الأول للهجرة، ليبلغ أشده في القرون الأولى الثلاثة اللاحقة، الحلقة الأكثر غموضا والأكثر إثارة للجدل، إن على المستوى العقائدي، أو على المستوى العملي، أو على مستوى الفلسفي المحض، حتى على المستوى الفني "ممثلا في المتنين الشعري والنثري على السواء". ويمكن أن يشار إلى التصوف دائما على أنه الطريق الذي إذا سلكه الفرد فإنه لن يرجع عنه أبدا "من وصل لم يرجع... وهذا الذهاب بلا عودة ما يشير جمهرة الأسئلة المرتبطة بمعنى التصوّف وغايته وأسراره وإصطلاحاته وشطحاته...إلخ[3].

والتصوف اسم حادث لمسمى قديم، إذ إن تسميته لا تعدو أن تكون سعيا إلى تطهير وتزكية النفس من الأوضار العالقة بها عادة، كالحسد والتكبر وحب الدنيا وحب الجاه، وذلك ابتغاء توجيهها إلى حب الله عز وجل والرضا عنه والتوكل عليه والإخلاص له[4].

فالتصوّف كما نعلم جميعا أنه ذلك التوجه الخاص جدا من العقيدة، إذ أخذ أشكالا عدة في ديانات الأمم جميعا، حيث شمل الفكر الإنساني بصورة عامة[1]. كيف لا وهو ذلك العلم

[1]- ينظر: أسعد السحمراني، التصوف منشؤه ومصطلحاته، دار النفائس، بيروت- لبنان، ط2، 2000م، ص27.
[2]- سورة الشمس، الآيات: 7، 8، 9، 10.
[3]- سفيان زدادقة، الحقيقة والسّراب قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس، ص47.
[4]- ينظر: محمد سعيد رمضان البوطي، السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، دار الفكر، دمشق- سوريا، ط1، 1988م، ص189.

الذي حقق شأوا عظيما بين سائر العلوم والفنون، حيث كان منصبا على جوهر الحقائق والمعارف.

ب- تعريف التصوّف:

يقابل مصطلح صوفية في اللغات الأوربية Mysticism أو Mystique، وهي كما يرى رينولد نيكلسون[2]. " انحدرت من الديانة الإغريقية إلى الآداب الأوربية واللفظان على كل حال ليسا مترادفين تماماً، لأن للفظة "الصوفي" مدلول ديني خاص، وقد قيدها الاستعمال بالصوفية الذين يدينون بالدين الإسلامي، كما قد ترجم الصوفيّة حرفيا إلى Sufism في الإنجليزية وإلى Soufisme في الفرنسية[3].

وقد تطور مصطلح التصوف عبر العصور والأمكنة، واكتسب في كل محضن مدلولا إضافيا، فقد عنى في بداية الأمر مجرد الزّهد والورع، ثم صار يدل على موقف استثنائي من الحياة ورؤية مختلفة للعالم، وتحول لاحقا إلى نظرية في المعرفة والوجود، لها تجليات في الأدب والفن وعلوم النفس والسلوك[4].

فالتصوّف هو المشي على ما كان عليه السلف من تمام الإتِّباع للشرع المحمدي والمهيّع الأحمدي والإعراض عن المكونات إلا للتفكر فيها والاعتبار بها والتأمل في اختلاف التجليات عليها وخلع الوجود الحق عليها[5] ثوبا بعد ثوب، فإنها ما نصبت لك لتراها ولكن

---

[1]- ينظر: الملتقى الوطني الأول حول التصوف في الأدب الشعبي، دورة الشاعر الشيخ أحمد بن معطار، التصوف في الأدب الشعبي الجزائري، منشورات الرابطة الوطنية للأدب الشعبي، ص6.

[2]- رينولد آلن نيكلسون R.A.Nicholson "1868-1945م" مستشرق انكليزي متخصص في التصوّف الشرقي، تخرج من كامبردج عام 1893م،حقق ونشر جملة من كتب التصوف الفارسية والعربية كتذكرة الأولياء، فارس نامة، المثنوي، اللمع، ترجمان الأشواق، كما ترجم إلى الإنجليزية كشف المحجوب، أسرار النفس. من أعماله دراسات في التصوف الإسلامي، الصوفيّة في الإسلام، فكرة الشخصية في التصوف الإسلامي، وآراءه في هذا الميدان محل اهتمام وتقدير كبير.

[3]- سفيان زدادقة ، الحقيقة والسراب قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعا وممارسة، ص53.

[4]- المرجع نفسه، ص54.

[5]- أحمد بن محي الدين بن مصطفى الحسيني الجزائري، نثر الدرّ وبسطه في بيان كون العلم نقطة، تقريظ واطلاع لنخبة من العلماء، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 2004م، ص109.

نصبت لك لترى فيها مولاها فالفاني عنها بالشهود ذاهل، والمشاهد له فيها محقق كامل، وغير المشاهد له فيها غافل[1].

جـ-مراحل التطور الصوّفيّ:

مرّ الصوفيّة بمراحل ثلاث هي:

أ-المرحلة الأولى:

ظهر التصوف في هذه المرحلة على أنه زهدا في الحياة الدُّنيا والبعد عن متعها واختيار الحياة الأخرى وما فيها من نعيم مقيم للمؤمنين، ويقوم المسلم على مجاهدة نفسه على الاستقامة والطاعة لله عزّ وجل وإتباع ما جاء في الكتاب والسنة، وقد ظهرت هذه المرحلة في الصدر الأول -القرن الأول والثاني الهجري-.[2] ولقد كان القرن الثالث الهجري هو العصر الذهبي للتصوف بصفته مذهبا في المعرفة، حتى بلغ درجة عالية من الاكتمال على يد أعلامه المشهورين[3].

يذهب ابن خلدون متحدّثا عن التصوّف: "وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفيّة والمتصوّفة[4].

ب-المرحلة الثانية:

دخلت بعض الأمم الإسلام نتيجة الفتح الإسلامي لها، وأقبل الناس على الحياة من متع وملذّات، وتكالب الخلفاء على الحكم، وانقسم المسلمون بين معارضين ومؤيدين للحكام فكان لابد أن يواجه علماء التصوف هذه الظواهر التي جدَّت على المجتمع الإسلامي فأضافوا إلى التصوف تعبيرات جديدة. هذه التعبيرات مستمدة أيضا من الكتاب والسنة مثل الفقر، ثم أرادوا

[1]- المرجع نفسه، ص110.
[2]- عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفيّة ومدارسها، ص27.
[3]- سفيان زدادقة، الحقيقة والسراب قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس مرجعا وممارسة ، ص57.
[4]- المرجع نفسه، ص55.

أن يميّزوا بينهم وبين بقية المسلمين فاختاروا الملابس الصوفيّة التي عرفوا بها على مر العصور المختلفة[1]. فالتصوف هو تلك الحقيقة اليقينية والتي تكمن في أن الغرض من الحياة هو حسن العبادة لله والفوز برضاه مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.[2] ولا يتأتى ذلك إلاّ بالمكابدة والمعاناة في شتى العبادات والمعاملات والبعد كل البعد عن زخرف الدنيا وزينتها.

جـ-المرحلة الثالثة:

امتزجت الثقافات الوافدة إلى المسلمين من الدول التي دخلت الإسلام مع الثقافة العربية وأعلنت عن مولد ثقافة جديدة هي الثقافة الإسلامية فكان لابد أن يواجه علماء التصوف هذه الظاهرة بإدخال بعض التغييرات وبعض الظواهر من حيث ترتيب المقامات والأحوال ونظام السلوك والآداب التي في الكتاب والسنَّة والتي توافق الشرع وتؤكد السير عليه[3].

فالتصوّف عملت على صقله ظروف تاريخية وسياسية وعقائدية، هذه الأخيرة التي كانت سببا رئيسيا في ظهوره المبكر، ويعتبر مسيرة خالدة في حياة الشّعوب كافَّة على اختلاف دياناتها ومذاهبها، فهو عالم النفس والروح.

يقول عمر فرّوخ: "شاع التصوف في الأديان والأمم كلها في الوثنية والمجوسية واليهودية والإسلام، ولقد عرف بعض أشكاله البابليون واليونان والرومان والهنود والصينيون والعرب والعجم، ولقد عرفته الأمم الفطريّة"[4].

فالتصوّف مقصد له الأهمية البالغة ذلك أنه ينم عن ذلك البعث التجديدي لأمور هذه الأمة وإصلاح أحوالها وعقائدها.

د-أركان التصوّف:

[1]- عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفيّة ومدارسها، ص 27.
[2]- سورة الذاريات، الآية: 56.
[3]- عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفيّة ومدارسها، ص 27.
[4]- سفيان زدادقة، الحقيقة والسراب، قراءة في البعد الصوفيّ عند أدونيس، ص55.

كما أن لعلماء الفقه والأصول وكذا علماء البلاغة والنّحو قواعدهم ومبادئهم التي تشكل لهم تلك الدّعامة، فكذلك علم التصوّف شأنه في ذلك شأن سائر العلوم والفنون، له أركان يرتكز عليها فتعطيه خصيصته المميزة، وطابعه الفريد، فعبد المنعم حفني يقرر أنه يقوم على عشرة أركان هي:[1]

1. تجريد التوحيد ومعناه ألا يشوبه خاطر تشبيه أو تعطيل.
2. فهم السماع ومعناه أن يسمع بحاله لا بالعلم فقط.
3. إيثار الإيثار أن يؤثر على نفسه غيره بالإيثار؛ ليكون فضل الإيثار لغيره.
4. سرعة الوجد ألا يكون فارغ السير مما يثير الزَّجد، ولا ممتلئ السر[2] مما يمنع من سماع زواجر الحق.
5. الكشف عن الخواطر أي أن يبحث عن كل ما يخطر على سره فيتابع ما للحقّ يدع ما ليس له.
6. كثرة الأسفار لشهود الاعتبار في الآفاق والأفكار.
7. ترك الاكتساب بالمطالبة النفوس بالتوكل.
8. تحريم الإدَّخار في حالة لا في واجب العلم.
9. حسن العشرة.
10. ترك الاختيار.[3]

إن امتثال السادة الصوفيّة لقواعدهم ومبادئهم التي لم يرتضوا غيرها بديلا، أعطتهم تلك الخصيصة التي ميزهم الله بها عن سائر المخلوقات والبشر؛ من ذلك أن طهر الله أبدانهم وأثلج صدورهم واجتباهم إليه وسقاهم شرابا سلسبيلا.

[1]- محمد مرتاض، التجربة الصوفيّة عند شعراء المغرب العربي في الخمسية الهجرية الثانية، ص22.
[2]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[3]- المرجع نفسه، ص23.

المبحث الثاني: فنون وأغراض صوفيّة

كان لمشايخة الصوفيّة فنونا منثورة ومنظومة، ضمّنتها وصاياهم وأدعيتهم، تنهض إن الله عزّ وجل، وتكشف الحجاب عن ذلك السر الكوني العظيم الذي أودعه الله في عباده، تجلت في خصوصية كل واحد منا.

لقد كانت فنونهم نورًا أضاء سماء التوحيد، ونجوما اهتدى بها العارفين السالكين لطريق أنوار الهداية من ذلك نجد:

1- الأدعيــة:

فالدّعاء هو الرجاء والرغبة الملحة إلى المولى عز وجل ومناجاته، وهو أفضل العبادات، فالله أمرنا بالدعاء ووعدنا بكرم الإستجابة[1]. مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَقَـــالَ رَبُّـكُـــمُ ادْعُونِـي أَسْتَـجِبْ لَـكُمْ﴾[2].

فصل من دعاء الشيخ أبي الحسن الشاذلي–رضي الله تعالى عنه–:

يـا الله، يـا فتّـاح، يـا علـيم، يـا غنـي، يـا كـريم، افـتح قلبـي بنـورك، وارحمنـي بطاعتـك، واحجبنـي عن معصـيتك، وامـنن علـي بمعرفتـك، وأغننـي بقـدرتك عن قـدرتي، وبعلمـك عن علمـي وبإرادتـك عن إرادتـي، وبحياتـك عن حيـاتي، وبصـفاتك عن صـفاتي، وبوجـودي عن وجـودك، وبـدنوك عن دنـوي، وبقربـك عن قربـي، وبحبـك عن حبـي، وبصـدقك عن صـدقي، وبحفظك عن حفظـي، وبنظرك عن نظري، وبتدبيرك عن تدبيري، وباختيارك عن إختياري، وبحولك وقوتك عن حولي وقوتي، وبجودك وكرمك وفضلك ورحمتك عن علمي، إنك على كل شيء قدير.

اللهم إن الدنيا حقيرة، حقير ما فيها وأن الآخرة كريمة كريم ما فيها.

[1]-ينظر: قارة مبروك بن صالح، الدعاء مخ العبادة، دار علي بن زيد للطباعة والنشر والتوزيع، بسكرة- الجزائر، د ط، 2013م، ص5.
[2]- سورة غافر، الآية:60.

وأنت الذي حقرت الحقير وكرمت الكريم، فأنّى يكون كريما من طلب غيرك أم كيف يكون زاهدا من اختار لدنياه غيرك.

فحققني بحقائق الزهد حتى أستغني بك عن طلب غيرك، وبمعرفتك حتى لا أحتاج إلى طلبك، إلهي كيف يصل إليك من طلبك، أم كيف يفوتك من هرب منك. فأطلبني برحمتك، ولا تطلبني بنقمتك، يا عزيز يا منتقم، إنك على كل شيء قدير[1].

و من دعائه: اللّهّم اغفر لي واسترني، ولا تفضحني في الدنيا والآخرة وعلمني وذكرني، وفهمني وارحمني، وفرحني وبرئني، وفرغني من كل شيء إلا من ذكرك وطاعتك، وطاعة رسولك ومحابك ومحاب رسولك –صلى الله عليه وسلم–[2].

فالدّعاء هو جوهر الإيمان وبه يتم قرب العبد بالمولى عزّ وجل، يكشف لنا عن كرم ومنن المولى عز وجل.

2– الرسائل:

وهي فن نثري، تكون في أسلوب بليغ راقي، طالما كانت وسيلة لتبادل الأخبار والمعلومات وتبادل وجهات النظر حول ما يدور في هذا الوجود ومكنوناته.

وهذه رسالة صوفيّة رمزية من إنشاء أبي عبد الله محمد بن يوسف بن الأبّار السّبتي[3]:

سلام على مولاي ورحمة الله وبركاته بسم الله الرحمّن الرحيم وصلى الله على محمد رسوله الكريم، الحمد لله الكائن قبل الأكوان –البائن عن حدث الزمان والمكان– الذي كان ولا شيء معه قبل إيجاد الكان وقال وقوله الحق كل من عليها فان– ولما في الخلق عند وجود عدم دعواه. وكتب الحق في لوح كل شيء كلا بل هو الله (كتب) وعين الحق تنظر شزرا وغمزا. ولسان الصدق ينطق زجرا ورمزا هل تحس منهم من أحد أو تسمع لكهم ركزا ثم انفصل العلم عن اليقين وتفصل حتى اتصل بيوم الدنيا والدين. وظهر الحق في محل الكيف

[1]- تاج الدين أحمد بن محمد ابن عبد الكريم ابن عطا الله السكندري، لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه الشاذلي، وضح حواشيه وخرّج أحاديثه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، د ت، ص178.

[2]- تلميذ أبو العباس بن العريف يوجه رسالة إلى شيخه يستفسره ويجله ويعظمه.

[3]- تلميذ أبو العباس بن العريف بن عطا الله الصنهاجي، قرأ القرآن، ودرس التفسير، وسمع الحديث، كان فقيها ومحدثا.

والأين. واستتر الحق في وجود حقيقة الزوجين. وقامت العقول بواجب أمره بأمره وكثيرا استكبر وأنكر وما قدروا الله حق قدره. وظهرت النفس بكمالها في شطر الدائرة. وظلت الألباب في كمال نقصها. ونقص كمالها باهتة حائرة مُلكت ملك الإختيار في ملك الإختبار تحت حكم الاضطرار على وقف الأقدار. فعقل العقل هناك عند تحصيل فهم التفصيل وقالت النفس عند وجود العجز هل إلى سكوت من سبيل كي لا يظهر ضعفها ولتستتر بسكون الرياء لا بسكوت الحياء سخفها. فلم أبلغ النفس (أبلغ!) ومستجيرا بصدقه منها، وإن كنت قد حسنت قُدما طريقها. وفررت لعدل العقل معرضا عنها، ومستجيرًا بصدقه منها، سالكا في ذلك منزل أصحاب الأصول لأهل الوصول –في الاعتماد على العقول– فإذا هو بسياسته الرّياسة والدّهاء يقول، لقد طال بنا البرسام وبيس ما أجرينا هجن الليل في طلق الكلام. فهمت الإشارة. ولمحت فيه بتثنيته (!بتنبيه) الفقيه: أمارة عن الأمارة فقلت حسبي الله لا نفس تتضع. ولا عقل عن العلل يرتفع ثم أومأت إلى النفس إيماء مفتقر في حال مختفر. فقلت ماذا ترين فقالت دع الكلام الخلف واخف خبره وامح من الرسم عينه وأثره فإن العالم البالغ لا يخاطب بقول هلهل النسج فارغ. فقلت واغوثاه.[1] أصبحت أسبح في بحر من الخجل ورحت من خبر العقبى على وجل. فقام خاطر العلم وقال أنا معدن الفوائد والموجود في الشدائد بخرق العوائد. أعاقك عائق أم عض لك أثر في طرق الحقائق فقلت كان كل ذلك وقد انسدت السبل دون أملي والمسالك منعت من مراجعة الشيخ –رضي الله عنه– وقد قال جوابك لا بد منه فقال خلق الإنسان من عجل ألم يسرح عن التقييد بأجل؟ قلت أجل. قال فأقم المُدة إلى وجود المِدَّة قلت بم أقوى على ذلك وأسلم من قول الفقيه مثالك؟ قال بما وصف فيما صنف. ألم يقل في ساكت الحيا والهيبة وقد استغنى أن يعتذر أو يعتذر عنه؟ قلت بلى قال فدع الاعتذار وكنه. قلت أخاف الدعوى. قال هو في الحقيقة الغثاء الأحوى

[1]- عبد السلام غرميني، المدارس الصوفيّة المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء- المغرب، ط1، 2000م، ص458.

ظاهره في العلم موجود، وباطنه في اليقين مفقود. قلت زدني من البيان، قال إنَّ في القرآن لبيّنات من الهدى والفرقان ألست تقرأه قلت كلا لكني أفتتح السورة وأقول متى تتم وأبدأ القراءة وغاية رغبتي أن أختم قال هذا عقل محجوب وقلت قفله عليه مضروب. لكني أذكرك آية، لم تبق في هذا الغرض غاية ولا نهاية. قال الله سبحانه وله المثل الأعلى ضرب لكم فقد علمك بما أعلمك كيفية كونك مع سيدك. وإنها ككون مملوكك معك قولا وعملا. ورجاء وأملا. فهل لمملوكك أن يدعي شيئا من ملكك. وهو بمرا (بمرأى؟) منك وفي ملكك. قلت سبحان الله وأنّى له السّيادة وكيف يتخيّل فرق هذه العادة قال فإن قال أخاف الدعوى قلت هو عبد توهم الحرية وخرج بعد وجود الخوف من رق العبودية. قال نعم والدعوى بنا ألطف من هذا وذلك، إنه قد يعبر بالدعاء عن الدعوى قال الله سبحانه دعواهم فيها سبحانك يريد دعاهم، ولهذه اللطيفة شرح لا يحتمله الكتاب ولا تسمعه كل العقول والألباب. ثم عطف عليّ وقال "انهض" كيف كانت النفس أسعد منك في وجود الحجة. وأحمد في سلوك نهج المحجة. أظنك غلوت في احتقارها حتى كدت أن تمضي في تيارها. فقلت الحق أجذر "أجدر" أن ظنك اليقين. وإني على تعظيمها لظنين قال فعما شئت الآن فاستخبر ولا تستعظم خلقا ولا تستحقر لا سيما السفيهة فإنها بطرق الشّر والجدال فقيهة فقلت أيتها النفس لقد جال طرفك في ميدان المعاتبة ضارية بحسام المنهج عنق المخاطبة والمعاتبة فما الذّي أخاف أو أعاف إن جاء ونبه بهذيان وانتلاف (!) قالت بخلوص نية من فكرة ولا روية اشتهار جهلك واحتقار شأنك وسقوط منزلتك عند سيد أصحابك وإخوانك وظهور عيبك وهو سر في خزائن غيبك فقلت أيتها النفس العاقلة ألست أنت المنشدة القائلة: العلم[1] إحصاء فكل معلم أحصى المعلم. العلم في الحقيقة كأنه أو ليس سيدي بك منك أعلم، وقدمه في الصدق أصدق وأقدم، يا عيب عيب ودن دناءة بلامرية ولا ريب، لعمرو الله أنّ أطول على سيدي لهفوة باردة بعيدة القرب من الفائدة لفضحت من قفي أسرارها بإصرارها وأوضحت عن دني أخبارها بإخبارها ما

[1]- عبد السلام غرميني، المدارس الصوفيّة المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري،ص459.

يستبشعه السفال ويستشنعه السفهاء والجهال. لكي أنزه سمع سيدي عن سماعه وأراجعه عن رؤيته واطلاعه على أنه بشرها أعلم. وبسرها أستر وأكتم. وبها وعليها في كلتي حالتيها ألطف وأفهم. فإن نفس المتعلم جزء من عالم نفس العالِم. وفي مثله يقول الناظم:

أحاط بجزئياتنا كل نفسه فأنفسنا في كلّ عالمها سلك

كأنّ جميع العارفين جنودها فكلهم ملكًا لها وهي الملك

والسلام المؤكد المعاد المردد على مولاي–عدد ما لا يحصيه عدد ولا يحويه –أمد متصل المزيد بدوام الأبد– ما اتصلت صفاته بالمزيد وحياته ورحمة الله وبركاته[1].

جاد لسان أبي عبد الله، وكذا قلمه فكانت رسالته راقية المعاني، بليغة الخطاب، حملت بين تضاعيفها، مناجاة الإنسان لنفسه وعقله وإدراك عظمتهما، وإعطاء العقل الأهمية التي تضاهي عظمته فهو مناط التفكير والتكليف، وكذا البعد عن كل الأهواء والنّوازع التي من شأنها أن تكدّر صفو النفس أو من أن يتسلل إليها شيء من خسيس الأمور، ومجاهدتها والعمل عي رقي صفائها الروحاني، فالإنسان بالروح لا بالجسد إنسان.

3- النّظم:

وهو رديف النثر، وكلام جاء في شكل أبيات شعرية لازمها الوزن والقافية والشعر الصوفيّ كان له الانتشار شأنه في ذلك شأن النثر كما أسلفت بالذكر، ولنا أبيات للإمام علي –كرم الله وجهه– حيث يقول:

النّفس تبكي على الدنيا وقد علمت أن السعادة فيها ترك ما فيها

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي كان قبل الموت بانيها

فإن بناها بخير طاب مسكنه وإن بناها بشر خاب بانيها

أموالنا لذوي الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنيها

أين الملوك التي كانت مسلطنة حتّى سقاها بكأس الموت ساقيها

[1]- عبد السلام غرميني، المدارس الصوفيّة المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري ، ص 460.

فكم مدائن في الآفاق قد بنيت أمست خرابا وأفنى الموت أهليها

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها فالموت لا شك يفنينا ويفنيها

لكل نفس وإن كانت على وجد من المنية آمال تقوّيها

المرء يبسطها والدهر يقبضها والنفس تنشرها والموت يطويها.[1]

نلمح في أبيات الإمام علي رضي الله عنه وكرم وجهه، ذلك الرّقي في المعاني، هذه الأخيرة حملت بين تضاعيفها، ذلك السمو الروحي المقدس للنفس وما ينبغي أن تحتويه من بعد عن سفاسف الأمور الدنيوية الفانية، والعلو بعيدا عسى أن تجد النفس نفسها التي تنشدها، تلك النفس التي يكون الصّفاء ساكنها والحب للمولى عزّ وجل متجذرا فيها، كيف لا وتفنى هذه الدنيا وما فيها، ويبقى وجه ربي جل جلاله وعظم شأنه.

[1]- ديوان أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه، جمع وترتيب عبد العزيز الكرم، ط1، 1988م، ص210.

الحكم العطائية هي حكم منثورة على لسان أهل الطريقة، ولما صنفها صاحبها الشيخ العلامة تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله السكندري –رحمة الله عليه– عرضها على شيخه أبي العباس المرسي، فتأملها وقال له: لقد أتبت يا بني في هذه الكراسة بمقاصد الإحياء وزيادة ولذلك تعشقها أرباب الذوق، لما رقّ لهم من معانيها وراق، وبسطوا القول فيها وشرحوها كثيرا، والحكم العطائية استلهمها صاحبها من الكتاب والسنة، حيث جاءت مترجمة عن صفاء سريرته، وصدق شعوره ومعاناته.

و الحكم جاءت مرتبة ترتيبا متناسقا، فكل حكمة هي توطئة لما بعدها وشرح لما قبلها، وهي أفضل ما صنف في علم التوحيد ذلك لما احتوته من عبارات رائقة ومعان ذات قدر جليل من العلم والفائدة، ولكون الحكم كُتيِّب صغير الجرم، "الجزء" عظيم الغاية فإنه أسمى ما اعتمده بالتفهم والتحفّظْ كل متعبد، سالك، احتوت الخير العميم، حيث كانت قبسا من نور، وسراجا وهّاجا أنار درب السالكين للنهج التوحيدي المستبين، وهي بغية مؤلفها تاج الدّين في الإيضاح والتّبيين.

المبحث الأوّل: باب التَّوحيد

1- الحكمة الأولى: "من علامة الاعتماد على العمل، نقصان الرّجاء عند وجود الزّلل".

2- قول البوطي رحمة الله عليه، فيها:

يقول لنا ابن عطاء الله: إيّاك أن تعتمد في رضا الله عنك وفي الجزاء الذي وعدك به على عمل قد فعلته ووفّقت له، كالصّلاة، كالصّوم، كالصَّدقات، كالمبررات المختلفة، بل اعتمد في ذلك على لطف الله وفضله وكرمه.[1]

ما معنى قولك: إنّ الله إنمَّا يثيبني بعملي... وإنما يدخلني الجنّة بعملي...؟ معنى هذا الكلام أن الله عز وجل رصد قيمة للجنة، تتمثَّل في العبادات والطَّاعات والابتعاد عن المحرّمات. فإن فعلت ذلك فقد بذلت الثَّمن. هل إنك عندما تؤدي أوامر الله عز وجل تصبح مالكا للجنة بعرق جبينك، تماما كما يستحق الذي اشترى بضع دونمات من أرض، بقيمة محددة دفعها لصاحبها الذي عرضها للبيع؟! فالأمر يختلف اختلاف كبيرا.

ذلك هو شأن علاقة العبد مع العبد... أما عندما يأمرك الله سبحانه وتعالى بالطاعات، وينهاك عن المحرّمات... من الذي أقدر على الصلاة التي أديتها؟ ونفس الأمر مع سائر العبادات الأخرى.[2] قال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.[3]

إذن فلا يجوز أن تتصور أنك تستحق جنة الله سبحانه وتعالى وثوابه، لأنك قد قدمت له ما قد طلب، ولأنك فعلت ما قد أوجب، وابتعدت عما حرَّم، لا يجوز لك أن تعتقد هذا ولو اعتقدت ذلك لكان نوعا من أخطر أنواع الشّرك.

[1] - محمد سعيد رمضان البوطي،المجلد الأول، الحكم العطائية شرح وتحليل، دار الفكر، دمشق، ط1، 2001، ص21.
[2] - المرجع نفسه ، ص 23.
[3] - سورة الحجرات، الآية 17.

يعني ذلك الاعتقاد أنّك تؤمن بأن صلاتك بقدرة ذاتية منك، وأنّك تفضلت بها على الله، والباري لا علاقة له بها.[1]

أين أنت من الكلمة القدسيّة التي كان يعلمها رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– أصحابه: "لا حول ولا قوة إلا بالله".[2]

أين أنت من اليقين التوحيدي الإيماني الذي لا يتسلل إليه الشك من أن الله عز وجل هو الخالق لأفعال عباده؟ فينبغي أن أشكر الله في كل أفعالي نعمة الكلام ينبغي أن أشكر الله على أن حرك لساني بنعمة الحمد وكذا قيامي في جوف الليل فبحبه جلّ وعلا حباني بهذه النعم.[3]

فهذا هو التوحيد الذي ينبغي أن يصطبغ به كل منَّا.

فهذا هو المبدأ الذي عناه صاحب جوهرة التوحيد وكل علماء العقيدة عندما قالوا: "فإن يثبنا فبمحض الفضل". ثم قالوا: "وإن يعذّب فبمحض العدل".

جعل الله أعمالنا سببا لدخول الجنة كرما منه وإحسانا.[4]

ينبغي أن ندرك أننا نسعى إلى كرم الله مجردين من أي استحقاق لذلك، طامعين في كرم رحمته.[5]

وهذا ما قرره رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في الحديث الذي رواه البخاري من حديث أبي هريرة ومن حديث السيدة عائشة –رضي الله عنها– وحديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله قال: "لن يُدخِلَ أحدكم الجنة عملُه"، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته".

ولنلاحظ هنا دقة كلام رسول الله في التعبير عن المعنى الذي بسطناه وأوضحناه. فهو –صلى الله عليه وسلم–. لم يقل:" لن يدخل أحدكم الجنة بعمله". لو قال ذلك، إذ لجاء

[1] - محمد سعيد رمضان البوطي، المرجع نفسه، ص 24.
[2] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية شرح وتحليل، مرجع سابق، ص 25.
[3] - ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[4] - ينظر: المرجع نفسه، ص 26.
[5] - ينظر: المرجع نفسه، ص 28.

كلامه مناقضا للقرآن الذي يقرر أن الله عز وجل يدخل الصالحين من عباده في الجنة بأعمالهم، وذلك في مثل قوله عز وجل: ﴿ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.[1] وإنما قال: "لن يُدخِلَ أحدَكم الجنة عملُهُ". أي اعتمادك على العمل مستقلا عن غفرانه وصفحه وكرمه، سيخيب آمالك ولن يحقق لك شيئا من أحلامك.[2]

وصفوة القول أن الإنسان –بعد أن عرف الله وأدرك أنه عبد مملوك به– يجب أن يعبد الله لأنه عبده ولأن الله ربه، أي سواء أثابه الله على عبادته أم لم يثبه، ثم إن عليه أن يسأله جنته تفضلا منه وإحسانا، وأن يستعيذ به من ناره وعذابه، تلطفا واسترحاما. وتلك هي سيرة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في دعائه.[3]

3- التعليق والتحليل:

ما يمكن استجلاؤه من الحكمة أن من علامات التعويل على العمل، نقص الرجاء في رحمة الله عند وجود الزلل، وهي حكمة يعيها العارفون، وهي تناسبهم حيث أنهم يشاهدون أعمالهم كلها لله عز وجل،[4] قال الله في محكم تنزيله: ﴿ وَّاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.[5] حيث أنهم لا يرون لأنفسهم عملا مهما عظمت طاعاتهم وعبادتهم، ولا ينقطع أملهم في كرم رحمة الله إذا ما هم ارتكبوا زللا أو لم يأتوا الطاعات على وجهها الأجل، لا لشيء وإنما كونهم راضين بحكم الله مذعنين له ولقدره منيبين إليه.

ذلك عدم التعويل على الأعمال وتنشيط العباد في الأعمال ورفع الهمم عن الاعتماد عليها، ويكون الاعتماد على فضل الله وكرمه.[6]

1- الحكمة الثانية:

[1] - سورة الجاثية ، الآية 16.
[2] - ينظر: محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية، شرح وتحليل ، مرجع سابق، ص 29.
[3] - المرجع نفسه، ص 37.
[4] - ينظر: عبد المجيد الشرنوبي، شرح الحكم العطائية، علق عليه عبد الفتاح البزم، دار الهدى، عين مليلة- الجزائر، ط1، 1991، ص 14.
[5] - سورة الصافات، الآية 96.
[6] - ينظر: عبد المجيد الشرنوبي، المرجع نفسه، ص 15.

1- "إرادتك التّجريدَ مع إقامة الله إيّاك في الأسباب من الشّهوة الخفيّة، وإرادتُك الأسبابَ مع إقامة الله إيّاك في التّجريد انحطاط عن الهمّة العليّة".

2- قول البوطي فيها: هذه الحكمة تدور على قطبين اثنين: أحدهما ما يسمونه التجريد، والآخر ما يسمونه الأسباب.. فما معنى هاتين الكلمتين؟

يتعرض الإنسان لحالتين اثنتين: الأولى أن يجد نفسه متقلبا تحت سلطان من عالم الأسباب، فأينما تحرّك وجد نفسه أمام أسباب لا مناص له من التعامل معها، فهذه التي تسمى حالة الأسباب.

والثانية أن يجد نفسه معزولا عن سلطان الأسباب، ليس له سبيل إليها: إذ تكون بعيدة عن متناوله وعن المناخ الذي أقامه الله فيه، وتسمى حالة التجرّد أو التجريد.

فالمطلوب من المؤمن بالله الساعي إلى تنفيذ أوامره أن ينظر إلى الحالة التي أقامه الله فيها فيتعامل معه طبق تلك الحالة.[1]

ولنبدأ بتحليل الشطر الأول منها "إرادتك التجريدَ مع إقامة الله إيّاك في الأسباب من الشّهوة الخفية".

رجل أناط الله به مسؤولية أسرة أكرمه بزوجة ثم أكرمه بعد الزوجة بأولاد، إذن فهو محاط بأسباب تدعوه إلى البحث عن الرّزق وإلى الكدح في سبيله، تصوّر لو أنّ هذا الإنسان "وهو يحاول أن يرقى إلى مستوى الصّلاح والتقوى وإلى صعيد التّوحيد والتوكل على الله". قال في نفسه: لا حاجة بي إلى السوق لأني موقن بقول الله تعالى: ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللّهِ الرِّزْقَ ﴾.[2] وموقن بأن الأسباب المادية كلها جنود بيد الله، فلأنقطع عن

[1] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية شرح وتحليل ،مرجع سابق، ص 40.
[2] - سورة العنكبوت، الآية: 17.

مشاغل الدنيا وأسواقها إلى عبادة الله عز وجل، وحجته في ذلك أنه غارق في بحار التّوحيد إن هذا الإنسان ينطبق عليه الشطر الأول من حكمة ابن عطاء الله.

نقول له: عليك قبل كل شيء أن تنظر في الحال أو المناخ الذي أقامك الله لقد أقامك تحت سلطان من عالم الأسباب عندما جعل لك زوجة وأولاد وأناط بعنقك مسؤولية إعالتهم جميعا. فاعلم أن في[1] الظاهر تمارس التّوحيد، وفي الباطن خاضع لهوى نفسك فأنت تمتعها بشهوة خفية متباهيا أمام الناس من كونك تتعامل مع المسبب لا مع الأسباب، وهذا غلط خطير في ميزان الشّرع.[2]

قل لهذا الإنسان إن الله أقامك بين كفتين من ميزان شرعه، عندما قال لك: ﴿ وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾[3] إنك لا تعيش لنفسك بل تعيش لأسرتك والذي يتحكم بسلوكك دينيا هو ميزان الشّرع.[4]

3- التعليق والتحليل:

ما يمكن سبره وفهمه من هذه الحكمة أن إرادتك وعزمك، - أيها الإنسان أو المريد- على التجرّد؛ أي التنصل من الأسباب التي أقامك الله فيها، كطلبك العلم الظاهر والاشتغال به هو مضمور في داخلك أو بالأحرى من الشهوة الخفية.[5] كونها من الشهوة فلعدم وقوفك مع مراد مولاك، وأما كونها خفيّة، فلكونك لم تقصد بذلك حظ نفسك في العاجل بل التقرّب بالتجرّد لمن خلقك وسواك فقد زينت لك النفس بالدّسيسة الخفيّة الخروج عن الأسباب التي أقامك فيها العزيز الوهاب.[6]

أما الشطر الثاني منها فهو قوله:

---

[1] - ينظر: محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية، مرجع سابق، ص 41.
[2] - ينظر : المرجع نفسه، ص 42.
[3] - سورة الرحمان، الآيات: 7-8-9.
[4] - محمد سعيد رمضان البوطي، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[5] - ينظر: عبد المجيد الشربوني، شرح الحكم العطائية، ص 16.
[6] - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

1- "وإرادتك الأسبابَ مع إقامة الله إياك في التّجريد انحطاط عن الهمّة العليّة".

2- قول البوطي فيها:

هنالك أشخاص جردهم الله تعالى عن مجال التعامل مع الأسباب، أو هي حالة شرعيّة أو واقعية تمر بهم تبعدهم عن مجال التعامل معها.

ترى ما الذي ينبغي أن يفعله هذا الإنسان، ولأي الندائين يستجيب؟ يجيب عن هذا السؤال المقطع الثاني من حكمة ابن عطاء الله، وهو قوله:

"إرادتك الأسبابَ مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمّة العليّة".[1]

معنى هذا الكلام: إذا كنت تريد أن تركن إلى الدعة اعتمادا على ما عندك من بلغة العيش فتأكل وتشرب وتنام، فاعلم أن هذه هي حياة البهائم. أما إن كان هدفك وقصدك أن تتجه بعد أن جعلك الله طليقا من الأسباب وحقوقها فمن واجبك آنذاك دراسة دين الله عز وجل وعقيدته مستغنيا عن جميع وظائف الدنيا ومسالك التوسع في الرزق. فهذا هو السلوك الأمثل الذي يتصف به أصحاب النفوس والهمم العالية.[2]

ولنا مثال في ذلك، شاب قال له والده: سأقدم لك كل ما تحتاج إليه من أسباب المعيشة على اختلافها، ولن أكلفك بأية نفقة مما تريد أن تعود به إلى نفسك، على أن تتفرغ لدراسة كتاب الله وشريعته. إذن فقد أقام الله هذا الإنسان في حال التجريد بمقتضى ميزان الشّرع وحكمه، وبذلك أن يتعامل مع ما أقامه الله فيه، فينصرف إلى دراسة كتاب الله والتفقّه في دينه.

ولا يقال لمثل هذا الإنسان: "إن الإسلام يأمرك بتسبب الرزق وينهاك عن البطالة"، ذلك لأن الشّرع يأمر من لا كفيل لرزقه بأن يغدو إلى السوق فيبحث عن مصدر العيش والرزق.

[1] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية شرح وتحليل، مرجع سابق، ص 47.
[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص 48.

أما من قيض له المعيش والكفيل فالشّرع لا يطالبه بهذا الأمر.[1] قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم "من يرد الله به خيرا يفقّه في الدين".[2]

3- التعليق والتحليل:

يعني ذلك أيها الإنسان العارف إرادتك الأسباب التي من شأنها أن تصرفك وتشغلك عن المولى عز وجل، مع إقامة الله إيّاك في عالم التّجريد، وهو الذي تولى رزقك من حيث لا تحتسب، ما هو إلا انحطاط عن الهمة العليّة فالرجوع من الحقّ إلى الخلق هو رتبة وضيعة.

يجب عليك أيها الإنسان أن تكون من حيث وضعك المولى عز وجل.[3]وعلاقة الإقامة حصول الاستقامة وتيسير الأسباب من الكريم الوهاب.[4]

يقول الإمام عبد الرزاق الكاشاني في "اصطلاحاته": "الهمم ثلاثة":

- همّة الإفاقة: هي أول درجات الهمة وهي الباعثة على طلب الباقي وترك الفاني.
- همّة الأنفة: هي الدرجة الثانية: وهي التي تورث صاحبها الأنفة من طلب الأجر على العمل حتى بأنف قلبه أن يشتغل بتوقع ما وعده الله تعالى من الثواب على العمل.
- همّة أرباب الهمم العالية: هي الدرجة الثالثة وهي التي تتعلق إلا بالحق، ولا تلتفت إلى غيره.[5]

1- الحكمة الثالثة: "سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار"

2- قول البوطي فيها:

هذه الحكمة تتمّة للحكمة التي قبلها وفيها أجوبة عن أسئلة تشيرها الحكمة التي قبلها في الذهن.

الهمم هي العزائم التي يمتّع الله بها الناس في مجال الإقبال على شؤونهم من تجارة ودراسة ونحوها... هذه الهمم أو العزائم، مهما اشتدت وقويت، في نفوس أصحابها، فإنها لا

[1] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية، ص 51.
[2] - رواه البخاري ومسلم وأحمد من حديث معاوية وحديث عبد الله بن عباس ورواه ابن ماجة من حديث أبي هريرة.
[3] - ينظر: عبد المجيد الشرنوبي، شرح الحكم العطائية، ص 17.
[4] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[5] - أبو العباس أحمد ابن محمد –زروق-، الحكم العطائية، ص 18.

تستطيع أن تخرق أسوار الأقدار. والأسوار جمع سور، وهو السور المعروف الذي يحيط بالبلدة. شبه ابن عطاء الله القدر الذي قدّره الله في غيبه عليك وعليّ، بسور محكم عال غليظ يحيط بالبلدة، فمهما أراد الأعداء أن يخترقوه من هنا أو هناك لن يستطيعوا إلى ذلك سبيلا. أي فأنت لا تستطيع أن تلغي أو تقفز فوق أقدار الله تعالى بهممك ومحاولاتك مهما أوتيت من براعة الحيلة وخوارق القوة.

والمعنى الذي يرمي إليه ابن عطاء الله هو التالي: يا ابن آدم اكدح كما تحب وابحث عن النتائج كما تشاء ومارس الأسباب في عالمها الذي أقامك الله فيه، جهد استطاعتك، ولكن فلتعلم أن الأسباب[1] التي تتعامل معها، مهما كانت ذات مضاء وفاعلية فيما يبدو لك، تتحول إلى ظواهر ميتة، إن هي عارضت قضاء الله وحكمه المبرمين في سابق غيبه.

وبادئ ذي بدء يجب أن نتبين بدقة معنى كل من القضاء والقدر.

قضاء الله عز وجل: علمه الأزلي بكل ما سيجري في المستقبل.

أما القدر فهو: وقوع الأشياء وجريانها، طبقا لعلم الله الأزلي بها.

إذن فعلم الله بالأحداث الكونية قبل وقوعها هو: "القضاء" فإذا وقعت ولن تقع إلا مطابقة لعلم الله فذلك هو القدر.[2]

والمهم أن تعلم أن كلا هذين النوعين داخل في معنى قضاء الله وقدره، وأن تعلم أن خضوع كل شيء لسلطان قضاء الله وقدره لا علاقة له باختيار الإنسان وجبره.

والآن، ما علاقة كلام ابن عطاء الله هنا بالحكمة التي فرغنا الآن من شرحها؟ إليك الجواب:

ربَّ شخص يعكف على سبب من أسباب الرزق مثلا، ينصرف إليه ويتعامل معه، ويتبين لدى النظر أنه سبب غير مشروع، فإن جاء من نصحه بالابتعاد عنه وبعدم التعامل

[1] - محمد سعيد رمضان البوطي ، الحكم العطائية شرح وتحليل، مرجع سابق، ص 59.
[2] - المرجع نفسه ، ص 60.

معه لعدم شرعيته، ناقشه قائلا: إن التسبب للرزق مشروع ومطلوب، وإن الله يكره العبد البطال.

وربما قال: إنني ملتزم بحكمة ابن عطاء الله، فقد أقامني الله في عالم الأسباب، ومن ثم فلا بد أن أتعامل معها.

والجواب يتمثل في هذا الاستدراك الذي يأتي ذيلا للحكمة الثانية: "سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار".[1]

إذن الرّزق الذي سيأتيك مسطر في علم الله، فهو داخل في قضائه، ولن يأتيك منه إلا ما هو مسطر في علمه وغيبة المكنون، وهذا هو قدر الله المتفق مع قضائه.[2]

وقد علمت الجواب عن سؤال من قد يقول: ففيم التعامل مع الأسباب إذن؟ ولماذا لا تخترقها جميعا لنتعامل بدلا منها مع الله، وننتظر حكمه وسلطانه في كل ما نحتاج إليه من غذاء ودواء، ونجاة مما نتوهمه سببا للمصائب أوالآلام؟

إن الجواب يتلخص في أن التعامل مع الله إنما يكون بالانسجام مع أوامره، والتعامل مع نظامه الذي أقام هذا الكون على أساسه.[3]

وكم يتجلى انسجام هذه الشريعة التي كلفنا الله بها، مع الحقيقة الاعتقادية التي علمنا الله إياها، في خطابه لمريم عندما ألجأها المخاض إلى جذع النخلة: ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾.[4]

فماذا عسى أن تؤثر يدها الضعيفة بالجذع الراسخ في تخوم الأرض المتصلب الثابت كدعامة البناء؟!.. مجرد وظيفة كلفها الله بها، ينبغي أن تنفذها في مجال التشريع والنظام، تأدبا مع التوجيه الرباني وتجاوبا مع مقتضيات العبودية لله، أما اليقين... أما الحقيقة

[1] - محمد سعيد رمضان البوطي ، الحكم العطائية شرح وتحليل، مرجع سابق، ص 61.
[2] - المرجع نفسه، ص 62.
[3] - المرجع نفسه، ص 68.
[4] - سورة مريم، الآية :25.

الاعتقادية، فهي أن خالق الرطب في أعلى شجرة النخل الباسقة في غير ميعاده هو الله، وأن الذي يسقطها في حجر مريم ثمرا طيّبا جنيّا هو الله.[1]

3- التعليق والتحليل:

ما يمكن قوله أن كل ما كتبه الله وقدره في الأزل لا تخرق وتتجاوز أسواره المحيطة به والتعامل يكون وفق اعتقادنا أن هناك أسبابًا وعللا. وفي ذات الوقت أن سوابق الهمم لا تخرق أسوار القدر" وأنها مسألة لا اختيار لنا فيها وسوابق الهمم يمكن أن يقال بأنها القوى المتضمنة في النفس والتي تتأثر وتنفعل بها الأشياء المحيطة بنا طبعا كل ذلك يكون وفق إرادة المولى عز وجل. لذلك وجب الاعتقاد أن الهمم ما هي إلا أسباب لا تأثير لها وما ينجم عنها إنما هو بقضاء الله وقدره.[2]

المبحث الثاني: باب العبادات

1- الحكمة الأولى: "من علامات موت القلب عدم الحزن على ما فاتك من الموافِقَات، وترك النّدم على ما فعلته من وجود الزلاّت".

2- قول البوطي فيها:

ما المراد بحياة القلب وموته، في مصطلح التّربية الإيمانية التي نحن بصددها؟

عندما يكون القلب عامرا بمشاعر حب الله وتعظيمه والخوف منه، فهو إذن قلب حيّ، وعندما يكون خاليا عن هذا المشاعر، فهو إذن قلب ميّت، ولكل من حياة القلب وموته آثار هامة تتجلّى في حياة صاحبه وسلوكه.

[1] - محمد سعيد رمضان البوطي ، الحكم العطائية، المرجع نفسه، ص 69.
[2] - ينظر: عبد المجيد الشرنوبي، شرح الحكم العطائية شرح وتحليل، ص 17.

وإني لأفترض قد تسأل ناقدا، أو مستشكلا، بعد أن عرفت معنى كل من القلب الحيّ والقلب الميّت: لماذا لا تكون علامة القلب.[1] الميت ارتكاب الزلاّت، من حيث تكون علامة القلب الحيّ النهوض بسائر "الموافقات" أي الطّاعات.

والجواب عن هذا الاستشكال أن الله لحكمة باهرة، متع الإنسان بفطرة إيمانية ترقى به إلى مستوى الملائكية، وجهزه بقلب مهيأ لأن يكون وعاءً صافيا لأقدس حبّ في الكون، ألا وهو حب الله عز وجل. وقضى بأن تكون الروح السارية في كيانه، سرّا هابطا إليه من الملأ الأعلى، منتميا ينسب التكريم والتمييز إلى ذاته العليّة، إذن فالكيان الإنساني مهيأ قلبا وروحا لأنه يفيض بأسمى مشاعر الحب والتعظيم والمهابة لله عز وجل.

أمّا الطاقة التي يتمتع بها الإنسان، فقد قضى الله عز وجل، لحكمة باهرة كما قلت أن تكون مشدودة إلى كثير من عوامل الضّعف.[2] وهذا فقد غدا الإنسان محور صراع وملتقى أطماع لهذه العوامل المحيطة به كلها، وهي الحقيقة التي أخبر بها البيان الإلهي القائل: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾.[3]

إذن فالكيان الإنساني يحوي طاقة علوية تتجه بالحب والحنين إلى الملأ الأعلى، وتتمركز هذه الطاقة في الروح التي تعكس إيحاءاتها إلى القلب، إلا أنه في الوقت ذاته يعاني من ضعف آتٍ من تسلط العوامل الغريزية والشهوانية والوساوس الشيطانية، ومحدودية الطّاقة الجسدية... فما هي النتيجة التي تنشأ من هذا التناقض؟

النتيجة التي لا محيص عنها هي الوقوع بين جاذبي الخطأ والصواب، أو الطّاعة والعصيان.[4] وصدق رسول الله –صلى الله عليه وسلم– القائل: "كل بني آدم خطّاء ، وخير الخطّائين التوّابون".[5]

[1] - محمد سعيد رمضان البوطي، المجلد الثاني، الحكم العطائية شرح وتحليل، ص 5.
[2] - ينظر: عبد المجيد الشرنوبي، شرح الحكم العطائية شرح وتحليل ، ص 6.
[3] - سورة النساء، الآية :28.
[4] - محمد سعيد رمضان البوطي ، الحكم العطائية، مرجع سابق، ص 7.
[5] - رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم في المستدرك ، من حديث أنس بن مالك وسنده صحيح.

ولكن ما الحكمة من هذا التناقض بين تسامي الرّوح والقلب إلى عالم الاستقامة والحب وآمال الانقياد الدّائم لأمر الله، واتجاه الكيان البشري مثقلا بالغرائز إلى حيث الشهوات والأهواء؟...

الحكمة أن يرى العبد المؤمن بالله عزّ وجل من هذا التناقض، مشكلة لا مخلّص له منها، إلا الفرار إلى الله والاستعانة به...

وهذا المصير الذي ينتهي إليه هذا العبد، فرارا من التناقض الذي وصفته لك، هو المعنى بكلمة "العبوديّة" وهي الغاية القصوى من تقلُّبات الإنسان في حياته الدّنيا، ولا فائدة للعبادات السلوكية الظاهرة، بدون التحقق بمشاعر العبودية الواجفة... وهي في خلاصة معناها حالة من الافتقار الكلي يشعر به الإنسان تجاه ربّه عزّ وجل.[1]

ولكن الدّاء الذي لا دواء له، أن يكون القلب ميتا قد اختفت منه مشاعر العبودية لله، وغابت عنه نبضات الحب له والخوف منه، فلا يحزن على ما قد فات من الطاعات، فأنى للتوبة أن تجد والحالة هذه سبيلا إليه.

وإنما يُبتلى القلب بهذه الحال، عندما يبرر المعاصي عصيانه، وهي نتيجة لغياب إيمانه بالله.[2]

فلما استخف بالمعصية التي وقعت منه، ولم يشعر من بعدها بأي جزع ولا ندامة، دلّ ذلك على أنه غير مبال بأمر الله وحكمه، وأنه ذاهل، عمن كونه عبدا مملوكا لله، مكلّفا بالانقياد لأمره والخضوع لسلطانه.

هما نقيضان لا يجتمعان: العبودية الواجفة لله، والاستكبار على سلطان الله!... فإن عمر قلبك بمشاعر العبودية له وقيت شر معاصيك وشر أوانك وشيطانك، وجعل الله لك من التوبة الدّائمة سبيلا ميسرا إلى صفحه ومغفرته.

[1] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية، مرجع سابق، ص 8.
[2] - المرجع نفسه ، ص 13.

وإن فاض قلبك بمشاعر الاستكبار عليه، لن تنفعك بعدها طاعة، ولن تجد سبيلا إلى توبة.[1] ويصدق عليك قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾.[2]

3- التعليق والتحليل:

من علامات موت قلبك أيها الإنسان -المريد- عدم حرنك وجزعك على ما لم تدركه من الموافِقَات أي الطاعات التي كلفنا الله بها في حكم شرعه، وترك ندمك على ما بدر منك من الزلات والمعاصي والمزالق الخطيرة والتي كدرت صفو حياتك الإيمانية جاء في الحديث: "من سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن".[3]

نسأل الله عز وجل أن يوفقنا لصالح الأقوال والأفعال.[4]

الموت فقد الحياة هذه الأخيرة علاماتها ثلاث: [5]

الأول: الإحساس بما يرد من مؤلم أو ملائم حسيا كان أو معنويا.

الثاني: التأثر بالعوارض القادحة في القيام الباعث على طلب القوام.

الثالث: ذوق الأشياء على ما هي عليه أو على خلافه حتى تدرك منها حرارة أو برودة أو مرارة أو حلاوة أو غير ذلك، فالقلب الحي هو الذي يتألم بالمعاصي ويتلذذ بالطاعة، والقلب الميت لا يحس بشيء من ذلك.[6]

الحكمة الثانية:

---

[1] - المرجع نفسه ، ص 14.

[2] - سورة الأعراف، الآية : 40.

[3] - نص الحديث كما ورد في "سنن الترمذي" رقم (2166) باب ما جاء في لزوم الجماعة، عن ابن عمر قال: خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس! إني قمت فيكم كمقام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فينا فقال: "أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذي يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يُستحلف ويشهد الشاهد ولا يستشهد ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد من أراد بحبوحة الجنة فيلزم الجماعة من سرته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن".

[4] - ينظر: عبد المجيد الشرنوبي ، شرح الحكم العطائية، ص 57.

[5] - أبو العباس أحمد بن محمد زروق، الحكم العطائية ، ص 72.

[6] - المرجع نفسه، ص 73.

1- "لا يعظم الذّنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظّن بالله تعالى، فإن من عرف ربه استصغر في جنب كرمه ذنبه".

2- قول البوطي فيها:

هذه الحكمة ساقها ابن عطاء الله استدراكا أو تقييدا للحكمة التي قبلها.[1]

إن العبد إذا فتح باب الحزن على نفسه من جراء تقصيره في طاعات فاته شرف النهوض بها، أو فتح على نفسه باب الندم من جرّاء معصية ارتكبها، فإنّ الشّأن أن يتطاول سلطان كل منهما عليه، إلى أن ينتهي به ربما إلى مضيق اليأس.

فكيف يتأتى له أن يستجيب لنداء الحزن والنّدم، ثم يتحكم بهما ويتحرر منهما، ليجنح إلى الطمأنينة والاستبشار بأن الله قد غفر له ذنبه وأصلح له حاله.

والجواب أن مصدر هذا الاستشكال ما قد تتوهمه من أنّ سبب الحزن أو الندم يجب أن يكون الخوف من سخط الله وعقابه، وعندما يكون سبب ذلك هو الخوف فالإشكال وارد، لأن الخوف مرتبط بموجبه وهو العقاب الذي يتوعد الله الضالين به، وإذا استحكم الخوف بالنفس، فلا بد أن يشوش على حسن الظن الذي هو مبعث الطمأنينة في النفس.

غير أن الشأن في المؤمن الذي عرف ربه من خلال صفاته الأسنى.[2] ومن خلال ما لا حصر له من النعم التي يكرمه بها، أن يسارع دائما في الاستجابة لأوامره ووصاياه، وفي الابتعاد عمّا ينهاه ويحذره منه من المحرمات، حبا له ويقينا منه بأنه لا يوجهه إلا إلى الخير، ولا يحذره إلا من الشر. فإذا ساقه الضعف إلى مخالفة أمره، فاض قلبه تأثرا وخجلا من هذا الذي بدر منه تجاه مولاه، الذي هو غريق ألطافه ومننه وإحسانه.[3]

وكم من فرق في مقام القرب والحب، بين من يجزع من المعصية التي ارتكبها، لما قد أناط الله بذلك من آيات الوعيد بالعقاب والنكال، وبين من يجزع من المعصية ذاتها ويندم

[1] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية ، ص 15.
[2] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية ، مرجع سابق، ص 16.
[3] - ينظر: المرجع نفسه، ص 17.

على ارتكابه لها، إذ يقف وقفة تدبّر أمام قول الله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾.[1]

مبعث الجزع والحزن هناك الخوف من عصى التعذيب أو التأديب... ومبعث الجزع هنا العتب الأخاذ الرقيق إذ يتوجه من المحسن المتفضل الكبير.

والذي ينتابه الجزع الأول، قد لا تعنيه الذات الإلهية التي تتوعده بالعقاب، وإنما يعنيه العقاب الذي يبحث عن ملاذ منه... أمّا الذي ينتابه الجزع الثاني فإنمّا يعنيه الذات الإلهية دون سواه، حبا ومهابة وتعظيما له.[2]

وإذا كان عطاء الربِّ لعبده إحسانا وتفضلا، فهيهات أن يكون الواجب الذي ينهض به العبد لربه إحسانا مماثلا أو مقابلا، ولكنها مشاكلة اقتضاها اللطف الإلهي بعباده، فليكن شركهم الواجب عليها فضلا منهم وإحسانا، على غرار قوله عزّ وجل: ﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾.[3] وقد علمت أن الله أجل من أن يحتاج فيستقرض أو أن يتعرض لجهد أو عجز فيتفضل بالإحسان إليه من يعينه فيدرأ عنه الجهد والعجز...

إن طاعات المسلم إذ يتقرب بها إلى ربه، ليست في الحقيقة إلا من مظاهر إحسان الله له.[4]

3- التعليق والتحليل:

إنّ النّدم على المعصية لهو أعظم ما يصدر عن الإنسان المؤمن العارف لربه، فهذا النّدم ما هو إلا دليل على حياة القلب، فينبغي أن يكون هذا الندم غير مؤدي إلى يأس أو قنوطٍ من رحمة المولى عز وجل.

[1] - سورة الرحمان، الآية: 60.
[2] - محمد سعيد رمضان البوطي، المرجع نفسه، ص 18.
[3] - سورة البقرة، الآية : 245.
[4] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية ، مرجع سابق، ص 20.

ينبغي على المؤمن أن يكون خائفا لأن الخوف يحمل على التوبة من الذّنب، وأن يكون راجيا لأن الرّجاء يطمعك[1] في القبول. فإن عرف عظيم كرم ولطف ومنن المولى عزّ وجل. استصغر في جنب كرمه ذنبه أيّا كان، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.[2] وتمامها:﴿ إِنَّ ٱللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾، والآية 115 وتمامها:﴿ إِنَّ ٱللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا ﴾.[3]

فإن العبد إذا عرف ربه أعظم لأجل حق إجلاله، ذنبه، حيث كان معتدلا، وإلاّ فقد نقص له من المعرفة على قدر ميله من الجانب الذي مال عنه إلى الجانب الذي مال إليه، ثم إذا أدى به ذكر الكرم للاغترار، فالهوى غالب عليه، ذكر مقابله للقنوط فظلمة النفس حاكمة لديه.[4]

فإذا علم المؤمن أن الله يغفر الذنب من مشاهدة عظيم كرمه وجماله، وعلم أنه يؤاخذ به من مشاهدة جلاله، ولولا اجتماعهما للعبد في موضع واحد ما اندفع باستغفاره.[5]

1- الحكمة الثالثة:

"لا صغيرة إذا قابلك عدله، ولا كبيرة إذا واجهك فضله".

2- قول البوطي فيها:

يقسّم العلماء المعاصي إلى كبائر وصغائر، وأساس ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾.[1]

[1] - ينظر : عبد المجيد الشرنوبي ، شرح الحكم العطائية، ص 57.
[2] - سورة النساء، الآية : 48.
[3] - سورة النساء، الآية: 116.
[4] - ينظر: أبو العباس أحمد بن محمد -زروق، الحكم العطائية، ص 74.
[5] - ينظر: أبو العباس أحمد بن محمد -زروق، الحكم العطائية، ص74.

أما تعريفها، فهو: كل ما جاء فيه وعيد من الله بعذاب في الآخرة، أو أنيطت به عقوبة في الدنيا كالحدّ ونحوه.

وأما تعدادها وذكر أنواعها فهي المعاصي التالية:

- **الشرك بالله:** والوعيد الذي جاء في حقه، قول الله عزّ وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾.[2]

- **عقوق الوالدين:** والوعيد الذي جاء في حقه، المفهوم المخالف لقول الله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾.[3]

- **قتل النفس بغير حق:** والوعيد الذي جاء في حقه، قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا ﴾.[4] هذا إلى جانب القصاص الذي أنيط به.

- **قذف المحصنات المؤمنات:** ومثله قذف المحصنين من المؤمنين، والوعيد الذي جاء فيه وقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.[5] هذا إلى جانب الحدّ الذي أنيط به.

- **أكل الرّبا:** ..والوعيد الذي جاء في حقه قول الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾.[6]

- **الفرار من الزّحف،** وهو أن يولى المسلم في القتال ظهره للغزاة المهاجمين بينما إخوانه مقبلين مهاجمين، الوعيد الذي في حقه، قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ

---

[1] - سورة النساء، الآية: 31.
[2] - سورة النساء، الآية : 48.
[3] - سورة الإسراء، الآية : 23.
[4] - سورة النساء، الآية: 93.
[5] - سورة النور، الآية: 23.
[6] - سورة البقرة، الآية: 265.

دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾.[1]

- **أكل مال اليتيم:** والوعيد الوارد في حقه تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾.[2]

- **الزنا:** والوعيد الوارد في حقه قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾.[3]

- **كتمان الشهادة،** لقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾.[4]

- **اليمين الغموس:** وهو أن يحلف الإنسان على شيء أنه فعله، وهو لم يفعله أو العكس، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[5]

- **شرب الخمر:** وحسبك من الوعيد عليه أن الله قرنه بالوثنية، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.[6] هذا إلى إلى جانب الحدّ الذي أنيط به.

[1] - سورة الأنفال، الآية: 16.
[2] - سورة النساء، الآية : 10.
[3] - سورة الفرقان، الآيات: 69/68.
[4] - سورة البقرة، الآية : 283.
[5] - سورة آل عمران، الآية : 77.
[6] - سورة المائدة، الآية : 90

– **ترك الصلاة:** لقوله تعالى في حقه: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾.[1] هذا إلى جانب الحدّ المنوط به.

– **نقض العهد وقطيعة الرّحم،** لقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾.[2]

يضاف إلى ذلك الإصرار على الصغائر مما دون هذه الأمور التي جاء الوعيد في حقها أو أنيط الحد والعقاب الدنيوية بها، فقد اتفق جمهور العلماء على أن الإصرار على صغيرة ما يدخل صاحبه في زمرة الفاسقين، قال صاحب الجوهرة:[3]

والعدل من لم يرتكب كبيرة ولم يكن ملازما صغيرة

ومن المعلوم أن الفسق نقيض العدل.[4]

فأمّا إن نظرت إلى حقوق الربوبية في أعناق عباد الله عز وجل، بقطع النظر، عن الأنظمة والشرائع التي يتوقف مصالحهم على الأخذ والانضباط بها، فلن نجد عندئذ أثرا لهذا التصنيف، بل لا بدّ أن تستوي المخالفات كلها عند حد من الخطورة والجسامة واحدة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾.[5]

فالمعاصي المعنية بقوله تعالى: ﴿ بِمَا كَسَبُوا ﴾.أعم من خصوص الكبائر أو الصغائر، إذ هي شاملة[6] لها جميعا، وها أنت ترى كيف اختفى هذا التصنيف فيها أمام قوله قوله عز وجل: ﴿ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ وهو وعيد كبير

[1] - سورة المدثر، الآيات: 43/42.
[2] - سورة محمد، الآيات: 23/22.
[3] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية ، مرجع سابق، ص 23.
[4] - المرجع نفسه، ص 24.
[5] - سورة فاطر، الآية : 45.
[6] - محمد سعيد رمضان، المرجع نفسه، ص 25.

مخيف، ولكنه مطوي عن التنفيذ في تلافيف فضل الله وكرمه، والإحالة إلى ما قد قضى الله به في يوم المعاد.

إذن فالمعاصي كلها، من حيث هي خروج عن طاعة الله تبارك وتعالى، ذات درجة واحدة في السّوء والتعرض لعقاب الله تعالى.

ولكن ما هو السبيل الذي إن سلكه الإنسان كان على موعد مع فضل الله وتجاوزه، وما هو السبيل الذي إن سار فيه الإنسان كان على موعد مع ميزان العدالة الإلهية التي ترعى حقوق الربوبية كاملة غير منقوصة؟...[1]

السبيل الموصل إلى مواجهة كرم الله، هو أن يعزم العبد على أن يطبع الله في كل ما قد أمر به، وأن ينتهي عن كل ما قد حذر ونهى عنه، موقنا أنه لا يملك لنفسه حولا ولا قوة، ومن ثم يستمد القدرة والتوفيق وأسبابهما من الله عز وجل، فإذا حالفه التوفيق وأمدّه الله بالحول والقوة لتنفيذ أوامره والانتهاء عن نواهيه، حمد الله موقنا أن الفضل بيد الله، وأن ثواب الطّاعة الشكر لا الأجر.

وأما إن لم يحالفه التوفيق، وزلّت به القدم في حمأة المعاصي، فسبيله إلى ذلك أن يصحو بعد تجاوز المعصية وارتكابها إلى ذلّ عبوديته لله، وأن يخاطب بقلب متلوع، قائلا: اللّهم إنّي ما عصيتك حين عصيت استكبارا على أمرك، واستهانة بحكمك، ولكن لسابقة سبق بها قضاؤك فالمغفرة منك والتوبة إليك.[2]

فإنه إن فعل ذلك واجه من الله فضله، بدلا من أن يقابله منه عدله.. ولا فرق عندئذ بين أن تكون المعصية التي تورط فيها كبيرة أو صغيرة.[3]

[1] - ينظر: محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية ، ص 26.
[2] - ينظر:المرجع نفسه، ص 27.
[3] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ولا يقولن قائل أن عمري الذي مضى مليء بالمعاصي وأنّ احتمال صفح الله بعيد، فإن هذا الاعتقاد معصية حذّر القرآن منها، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ ٱللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.[1]

وسبب كونه معصية أن صاحب هذا الاعتقاد لا يعرفه الله منة ولا فضلا.[2]

وإن جل العقاب الذي يتعرض له العاصي، إنّما هو على ما قد انبثق فيها من دلائل استهانة العاصي بها، ولا مبالاته بالعقاب الذي قد يناله بسببها.

من الأمثلة على ذلك إصرار بعض الناس على الأكل بالشمال طبقا لما يقتضيه عرف السكين والشوكة، إن من المتفق عليه أن الأكل باليد اليمنى من السنن المأثورة عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وليس من الواجبات ولا الفرائض... إذ الانصراف عن الالتزام بهذه السنّة بدافع هذه الاستهانة، تحيل السنّة إلى فريضة، وتجعل الانصراف عنها تلبسا بمعصية كبيرة، وربما تسربت إلى مكمن الإيمان فزلزلته أو قضت عليه.[3]

يتضح هذا جليا من الحديث الذي رواه سلمة بن الأكوع أن رجلا أكل عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم– بشماله، فقال: كل بيمينك، قال: لا[4] أستطيع، قال: لا استطعت!... ما منعه إلا الكبر، فما رفعها إلى فمه.[5] حيث انبثق من موقفه ذاك وضع ورطه بأخطر أنواع الموبقات التي اقتضت أن يواجهه من الله عدله.[6]

وانظر إلى هذه الحقيقة كم تبدو واضحة في هذا الذي يقوله رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "إنّ المؤمن ليرى ذنوبه كأنه جالس في أصل جبل يخشى أن ينقلب عليه، وإن الفاجر ليرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه فقال به هكذا".[7]

---

[1] - سورة يوسف، الآية: 87.
[2] - ينظر: محمد سعيد رمضان البوطي، المرجع نفسه، ص 28.
[3] - ينظر: محمد سعيد رمضان، البوطي، الحكم العطائية، مرجع سابق، ص 29.
[4] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[5] - رواه البخاري في صحيحه من حديث ، عبد الله بن مسعود.
[6] - ينظر: محمد سعيد رمضان البوطي، المرجع نفسه، ص 30.
[7] - المرجع نفسه، ص 32.

وإنك لتلاحظ أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لم يفرّق في هذا بين كبيرة وصغيرة.[1]

فالسبيل أن تنقاد: إلى تنفيذ أوامر الله والابتعاد عن نواهيه، بدافع التعظيم لذاته، والغيرة على حرماته، والشعور بعظيم حقّ الله عليك.

3– التعليق والتحليل:

اعلم أيّها الإنسان، أن لا صغيرة من ذنوبك، إنّما كلّها كبائر، إذا ما قابلك عدل الله، فإن صفة العدل إذا بدت على من كرهه، وأبغضه الله، تلاشت حسناته، وأصبحت صغائره كبائر؛ لأن المولى عزّ وجل سيعاقبه على أصغر ذنب اقترفه، ولا كبيرة إذا واجهك فضله، بحيث إنّ فضل الله يكون بإعطائك الشيء بغير مقابل ولا عوض، فإنّ صفة الفضل إن بدت لمن أحبه الله تلاشت سيئاته، وبدلت حسنات.[2]

وقد قال يحي بن معاذ رضي الله عنه: [3] "إن أنا لهم فضله لم تبق لهم سيئة وإن أقام عليهم عدله لم تبق لهم حسنة، وفيما أوحى الله إلى بعض أنبيائه، قل لعبادي الصّديقين لا يغتروا فإني إن أقم عليهم عدلي وقسطي أعذبهم غير ظالم لهم، وقل[4] لعبادي المذنبين لا يقنطوا، فإنّي لا يتعاظمني ذنب أغفره لهم".[5]

وقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾.[6] ﴾.[6] فجعل دعوة الرّسل وخطابهم بها على حدّ سواء.

[1] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[2] - عبد المجيد الشرنوبي، شرح الحكم العطائية، ص 58.
[3] - يحي بن معاذ الرازي الواعظ، أحد الأوتاد، مات ثمان وخمسين ومائتين وقبره بنيسابور يستسقى به ويتبرك بزيارته.
[4] - أبو العباس أحمد بن محمد –زروق- الحكم العطائية ، ص 74.
[5] - المرجع نفسه، ص75.
[6] - سورة فصلت ، الآية : 43.

إن هناك اختلاف كثير بين النّاس في حدّ الصغيرة والكبيرة ومردّه أن الكبيرة ما عظم أمره عند الله والصغيرة ما خفّ أمره، والعدل ما للمالك أن يفعله من غير منازع وكل تصرف لله كذلك ، إن الكل منه وإليه.[1]

المبحث الثالث: باب العقائد.

1- الحكمة الأولى:

"**الغافل إذا أصبح يَنظر ماذا يَفعل، والعاقل يَنظر ما يَفعل الله به**".

2- قول البوطي: رحمة الله عليه فيها:

كان المفروض أن يعبر عما يقابل العاقل بـ: الغبي أو الساذج مثلا. ولكنه عبّر عمّا يقابله بـ: الغافل، كما ترى. فلماذا؟

والجواب: لأن مراده بالعاقل من يحكِّم عقله في حقائق الأمور، ويستعمله في فهمها وإدراكها على ما هي عليه. وإنما يقابله، بهذا المعنى، الغافل إذ الشأن فيه أنه ذاهل عن استعمال عقله منصرف عن تحكيمه في حقائق الأمور وعن السعي به للوصول إلى كنهها ولإدراكها على ما هي عليه.[2]

والآن ...لاحظ الدقة التالية في كلام ابن عطاء الله:

يقول عن الغافل: إنه ينظر ماذا يفعل، ويقول عن العاقل: إنه ينظر ما يُفعل به، استعمل كلمة "ينظر" في الحالتين بدلا عن كلمة "يقول" فلماذا؟ لماذا لم يصغ حكمته هذه العبارة التالية: الغافل إذا أصبح يقول: ماذا أفعل، والعاقل إذا أصبح يقول: ماذا يفعل بي؟!..

والجواب أن المسألة هنا تتعلق بالاعتقاد، لا باللفظ والعبارة، أي إن المطلوب من المسلم أن يعلم أنَّه لا يستقلّ بأمر نفسه في حال من الأحوال ولا فعل من الأفعال، وإنما هو مقود في كلّ ذلك بقرار الله وقضائه، وبعونه وتدبيره.

[1] ينظر: أبو العباس أحمد بن محمد – زروق- ، المرجع نفسه، ص 75.
[2] - محمد سعيد رمضان البوطي،المجلد الثالث، الحكم العطائية شرح وتحليل، ص05.

فإذا علم المسلم ذلك واستيقنه، فلا حرج، عن التعبير والبيان أن ينسب إلى نفسه الفعل مخبرا عن الماضي أو المستقبل، بأن يقول: فعلت كذا، أو سأفعل كذا.[1]

والجملة فإن العبد إذ يتجه إلى فعل ما، لا يملك تجاهه إلا القصد إليه والعزم عليه، أما المبادرة إليه بالتنفيذ فإنما تكون بخلق الله له.[2]

وليس مهمّا العبارة التي تدور على اللسان "سأفعل" وإنما المهم العقيدة التي يجب أن تستقر في العقل.

فمن أجل ذلك ابتعد ابن عطاء الله عن كلمة "يقول" وأدرج بدلا عنها كلمة "ينظر" والتي أراد بها النظر الفكري والاعتقادي.[3]

فهذه الحكمة مبنية على مبدأ معلوم من مبادئ العقيدة، وهو أن من الثابت باليقين العلمي والنصوص القاطعة أن الله هو الذي يخلق أفعال العباد، وهو مصدر القوى والقدر كلها.

أما المثوبة والعقاب، فإنهما يدوران على محور القصد والعزم، لا على الفعل المادي الذي هو بخلق الله عز وجل؛ والمصطلح القرآني الذي يعبر عن القصد والعزم، هو "الكسب"[4] في مثل قول الله تعالى ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾.[5]

فمن هنا جاء الأدب الإسلامي بتنبيه المسلم، إلى أن يقيد وعوده.[6] وإخباراته عن الأعمال والتصرفات التي عزم على إنجازها، بمشيئة الله عز وجل، وبوسعك أن تتبين أهمية هذا الأدب الإسلامي، في هذا الكلام الذي يخاطب الله به رسوله محمدا –صلى الله عليه وسلم– ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاء

[1] - المرجع نفسه، ص06.
[2] - المرجع نفسه، ص07.
[3] - ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[4] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية شرح وتحليل،مرجع سابق، ص08.
[5] - سورة البقرة، الآية: 286.
[6] - محمد سعيد رمضان البوطي، المرجع نفسه، ص10.

﴿ اللّه وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾[1]

وأجلى من ذلك في هذا الباب قوله تعالى لرسوله ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[2]

وأصبح ما قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾، لأن ذلك عائد إلى أمور الدنيا وتقلباتها، أما في يوم القيامة فقد أنبأ الله رسوله بما قد أعدّ له فيه من المقام المحمود والمكرمات التي لا حصر لها.[3]

أمّا الغافل، على حد تعبير ابن عطاء الله، وهو الذي لم يستعمل عقله في إدراك الحقيقة والتعامل معها، فإنه يرى أنه هو المستقل بأمر نفسه، ناسيًا أنَّه لا يملك من وراء إختياراته وعزائمه النفسية، أي قدرة تنفيذية، وذاهلا عن أن خالق كل شيء، والمدبّر لكل شيء إنما هو الله.[4]

والشأن في حال هذا الإنسان الغافل، أن يتعرّض للمفاجآت التي لم يكن يضع لها في نفسه أي حساب، مما يخالف قراراته التي اتخذها في حق نفسه، فالأمر ليس عائدا إليه، وإنما هو عائد إلى قضاء الله وحكمه وخلقه.

ولا تسل عن الضّيق الذي ينتابه، إذ يفاجأ بأن آماله خابت، وبأن أحكامه عادت أمنيات باطلة.

قرر، ولم ينفذ قراره، فمن أين ينفذ إلى قلبه العزاء؟ وأنّى له أن يعلم أن الله هو المسير، وأنه هو صاحب القوى والقدر، وأن الذي يعلم ما تنطوي عليه ظواهر الأشياء من خير أو شر إنما هو الله؟

---

[1] - سورة الكهف، الآيات: 23، 24.
[2] - سورة الأحقاف، الآية: 09.
[3] - محمد سعيد رمضان البوطي، المرجع نفسه، ص 11.
[4] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية شرح وتحليل، مرجع سابق، ص 13.

حياة هذا الصنف من الناس معرضة دائما لأخطر المنغصات، ولأسوأ الأمراض النفسية والجسمية ولا علاج لذلك كله إلا اليقظة من الغفلة والإصغاء إلى صوت العقل.[1]

3- التعليق التحليل:

ما يمكن استجلاؤه من الحكمة، أنّ الغافل حين يقول: ماذا أفعل اليوم؟ ينسب إلى الفعل اسمه، فهو جدير بأن يكله الله تعالى إلى نفسه. وأمّا العاقل فهو مدرك لعظمة المولى عز وجل، كيس فطن حينها يقول: ماذا يفعل الله بي؟ فهو مدرك أنّ الله يوفقه لصالح الأعمال وأحسن الأقوال. فأول وارد أو خاطر يرد على العبد هو ميزان توحيده.[2] وقد كان سيدنا عمر بن[3] عبد العزيز يقول: أصبحت ومالي وسرور إلا في مواقع القدر.[4] فالعبد لا يملك لنفسه حياة ولا موتا ولا نشورا، فالأمر كله بتوفيق من المولى عز وجل وكرم مننه وفضله.[5]

1- الحكمة الثانية:

"**إنما يستوحش العُبّاد والزُهّاد من كل شيء، لغيبتهم عن الله في كلّ شيء فلو شهدوه في كلّ شيء لم يستوحشوا من شيء**".

2- قول البوطي فيها:

يؤكد ابن عطاء الله من خلال هذه الحكمة أن التفرّغ للعبادة والإعراض عن زخارف الدنيا وملهياتها، لا يكون السبيل إليها بالعزلة في الكهوف ونحوها، وبهجرات مقومات الحياة الدّنيا، كزراعة الأرض وبناء البيوت، والسّعي وراء استكشاف الحقائق العلمية.

ولو صح أن يكون سبيل العبادة والزّهد في الدنيا الاستيحاش.[6] من كل شيء تراه العين من مظاهر هذه الحياة الدنيا، ومن ثم الفرار منه والابتعاد عنه، إذن لعادت الأرض خرابا ولتحولت أرض المسلمين إلى مرتع للكافرين من أعداء الله وعباده المؤمنين به.

---

[1] - المرجع نفسه ، ص 14.
[2] - عبد المجيد الشرنوبي، شرح الحكم العطائية، ص 93.
[3] - هو : عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو حفص: الخليفة الصالح والملك العادل، وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين تشبيها له بهم، هو من ملوك الدولة المروانية الأموية بالشام.
[4] - عبد المجيد الشرنوبي، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.
[5] - ينظر: عبد المجيد الشرنوبي، شرح الحكم العطائية، ص 94.
[6] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية ، مرجع سابق، ص 15.

وكل ذلك يناقض مناقضة حادّة مع قوله عز وجل: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾.[1] أي أمركم بعمارتها، ومع قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾.[2]

ولكن كيف السبيل إلى أن يقبل المسلم فيلبي نداء الله بعمارة الأرض، دون أن تشغله عن الإقبال إلى الله عز وجل وعن أداء الرّسالة التي خلق من أجلها والتي دلّ عليها قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾.[3]

يجيب ابن عطاء الله من خلال حكمته هذه عن هذا السؤال.[4]

يقول ابن عطاء الله: إنما يأسرك من الدنيا تعلقك بها، لا تعاملك معها، والمطلوب أن تتعامل معها لا أن تتعلق بها.

والسبيل إلى ذلك أن تأخذ نفسك بالأسباب التي توقظ بين جوانحك محبتك لله، والتي تزيدها قوة وتأثيرا على قلبك ، وأهم هذه الأسباب الإكثار من ذكر الله ومراقبته.

واعلم أن محبة الله موجودة بالفطرة في أفئدة عباده جميعا، ولكنها قد تكون راقدة، من جراء ما قد غشى عليها من محبة الشهوات والأهواء.[5]

إن محبة الله تعالى تجعل عين المحبّ، مهما تقلبت في أنحاء المكونات وصورها وزخارفها، لا تشهد في ذلك كله إلا صفات الله تعالى ومظاهر آلائه وحكمته وبالغ سطوته وقدرته، وهي حال يعرفها ويتذوقها كل من استقام على مراقبة الله وذكره بالنهج الذي أوضحته لك، وهي الحال التي يسمونها وحدة الشهود.

---

[1] - سورة هود، الآية : 61.
[2] - سورة الأعراف، الآية : 32.
[3] - سورة الذاريات، الآيات: 56-57.
[4] - محمد سعيد رمضان البوطي، المرجع نفسه، ص 16.
[5] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية ، مرجع سابق، ص 17.

ففيم يستوحش صاحب هذه الحال من الأشياء التي يراها.[1] وهي إنما تذكره بالله.

ومن ثم ففيم يفر منها، أي من أشياء الكون ومقومات الحياة الدنيا إلى الانعزال في الكهوف وشعاف الجبال؟

إذن، فالذي لا تحلو له العبادة إلا بعد أن يقصي نفسه عن معترك الحياة، ولا يتأتى له ذكر الله إلا بعد أن يقطع نفسه عن أسباب الدّنيا كلها، محجوب عن الله بصور الدنيا ومظاهرها، غائب بل مشغول عنه بأشيائها وخيراتها، ومن ثم فهو يعالج نفسه إذا أراد الإقبال إلى الله، بالاعتزال عن الناس ودنياهم، وبالانفراد في الكهوف والشواهق، وهذا شأن من كان حديث عهد بمعرفة الله، وربما كان من الخير بالنسبة له ولأمثاله، أن يأخذ نفسه أحيانا ببعض الخلوة، ليروضها على التحرّر من الملهيات الدنيوية، بل إنّ وردًا جزئيّا من الخلوة يأخذ به المسلم نفسه في كل يوم وليلة، كالقيام في الأسحار، أو في أي من أوقات البكور والآصال، من شأنه أن يعينه على تصفية فكره من الشواغل والشوائب.

ولكن ابن عطا الله يتحدث هنا عن المنقطعين عن الدنيا تزهدا[2] فيها ورغبة في التفرغ لعبادة الله ظنا منهم أن التعامل مع الدنيا يشغلهم عن الله.

ألا ترى إلى الخلفاء الراشدين؟ ألم يكونوا نقابة السّلف الصالح؟ أفهجروا الأوطان والأموال والديار، واستوطنوا الكهوف وبطون الأودية أو شعاف الجبال؟ ألا ترى إلى عمر كيف أنشأ ديوان العطاء، وبني الكوفة، فهل كانت تقوم للإسلام الحضاري قائمة، بل للإسلام من حيث هو قائمة لو أن الخلفاء ومعه ذلك الرعيل الأول هجروا الدنيا وفعلوا ما فعله المتعبدون الذين يتحدث عنهم ابن عطاء الله.[3]

غير أنك قد تسأل: فكيف أتيح لذلك السلف الصالح أن يسبحوا في بحار الدّنيا، دون أن تعصف بهم أمواجها؟[4]

---

[1] - المرجع نفسه، ص 18.
[2] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية، مرجع سابق، ص 19.
[3] - ينظر: المرجع نفسه، ص 20.
[4] - ينظر : المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

قال ابن عطاء الله مجيبا عن هذا السؤال "فلو شهدوه في كل شيء لم يستوحشوا من شيء".

هكذا كان شأن ذلك السّلف: شاهدوا الله تعالى في كل شيء من مخلوقاته، فكانت مخلوقاته دليلا لهم إليه، ولم تكن حجابا يصدهم عن معرفته وشهوده، ويشغلهم عن تسبيحه وذكره!..[1]

يلفت ابن عطاء الله النّظر من خلال كلامه إلى أن رتبة هؤلاء المتعبدين والزهاد، متقاصرة على رتبة العارفين ومن كان قبلهم من أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم–[2].

والزهد ليس في نفض اليد ولا في إخلاء الجيب أو الصندوق من المال، وإنما الزّهد أن تخلي قلبك من التعلق والاهتمام به.. مستعيضا عنه بثقتك بالله عز وجل وبرحمته التي لا تنفك عنك، مصداق ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾.[3] وقول رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "ليست الزّهادة في تحريم الحلال ولا في إضاعة المال، إنما الزهادة أن تكون بما في يد الله أوثق مما في يدك".[4]

3– التعليق والتحليل :

إن العبّاد والزّهاد إنما يستوحشون أي أنهم ينفرون عن كل ما يقطعهم عن الله، فبغيبتهم هذه يبتغون الاحتجاب عن المولى عزّ وجل برؤية أنفسهم، ومراعاة حظوظهم، إنما كان استوحاشهم من الأشياء التي من حولها في هذا الوجود مخافة أن تفتنهم وتلهيهم مقاصدهم ونسكهم، فلو شهدوه في كل شيء كما شهده العارفون والمحبون، لم يستوحشوا من شيء، لرؤيتهم له حينئذ ظاهرا في كل الأشياء والمخلوقات فلم تكن حجابا يبعدهم ويصدهم عن

[1] - المرجع نفسه ، ص 21.
[2] - ينظر: المرجع نفسه، ص 22.
[3] - سورة الزخرف، الآية: 32.
[4] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية، مرجع سابق ، ص 23.

معرفة المولى عز وجل وشهوده وذكره، وآثروا حب الله والإخلاص له، على محبة الدنيا مدركين أنها مجرد عرض زائل.[1]

قال الشيخ أبو العباس الحضرمي –رضي الله عنه–: "ليس الرجل الذي لا يدخل الظّلمة، ولا الذي يدخل بالظّلمة، إنما الرّجل الذي يدخل الظلمة بالنّور".

وقال أيضا: –رضي الله عنه–: "ليس الرجل الذي يعرف كيفية تفريق الدنيا فيفرقها، إنما الرجل الذي يعرف كيفية إمساكها فيمسكها".

ثم من فوائد مشاهدة الخلائق التحقق في التوحيد والمعرفة برؤية المختلفات لأن لها أثرا في النفس بخلاف الأمور المتجردة من وجه واحد، والرؤية في تلك الدار بالبصر على قدرها في هذه الدار بالبصيرة.[2] فأعظم وأجلّ النّاس معرفة أكثرهم في الدّار الآخرة رؤية لا أكثرهم عبادة وأقواهم زهدا.[3]

1- الحكمة الثالثة:

"أمرك في هذه الدّار بالنظر في مكوَّناته، وسيكشف لك في تلك الدار عن كمال ذاته".

2- قول البوطي فيها:

من شأن المؤمن الذي أكرمه الله بمعرفة ربه، فتنبه إلى توارد نعم الله عليه، وعلم أنه يتقلب في حماية الله ولطفه، أن يتمنى لو رآه... لاسيما عندما يناجيه فتأتيه الاستجابة، يلتجأ إليه فتاتيه النجدة.

ولكن قضى الله تعالى أن يكون العبد محجوبا في هذه الحياة الدنيا عن رؤية ربه، فقد أنشأه نشأة ترابية، وأقامه ضمن قدرات وإمكانات محدودة، لا تؤهله لرؤية قيوم السموات والأرض.[4]

[1] - ينظر : عبد المجيد الشرنوبي، شرح الحكم العطائية ، ص 94.
[2] - أبو العباس أحمد بن محمد –زروق ، الحكم العطائية ، ص 126.
[3] - ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[4] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية، مرجع سابق، ص 24.

وقد سبق أن أعلن كليم الله سيدنا موسى عن اشتياقه إلى رؤية ربه.[1] فقال له: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾.[2] ولكن سؤاله هذا اتجه إلى الله عزّ وجل باسمه، وباسم سائر العباد.[3] ولكن الله عز وجل أجابه، بل أجاب كل متطلع إلى رؤيته كتطلعه، بالقضاء الذي قضى به، فقال له ولهم: ﴿ لَن تَرَانِي﴾. ونبهه ونبههم إلى الكينونة الضعيفة التي أقام الله فيها عباده، والتي لا تتناسب إلا مع مرحلة التكليف التي يأخذهم بها، ومع الحياة الترابية التي يعيشون في غمارها، فقال: ﴿ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾.[4]

إذن فقد قضى الله عزّ وجل، في حقّ أحبائه المتطلعين، بل المتشوقين إلى رؤيته، بالصوم عن بلوغ هذه الأمنية العظمى ولكنه عوضهم عن ذلك بأمرين: أحدهما: الموعدة التي وعدهم إياها بأن يريهم ذاته العليّة، إذا وفدوا إلى الله صالحين ملتزمين بالعهد، ثانيهما: مكوناته العجيبة التي تحمل إليهم الكثير من مظاهر لطفه وإحسانه وحكمته وجماله.

ابعث بطرفك إلى السّماء في جنح الليل، وتأمل في كواكبها الكثيرة التي تخفق في حلك الظلام، وانظر إلى القمر المتألق فيما بينها.[5]

ثم ارجع البصر إلى الأرض، وتأمل في بساطها السندسي أيام الرّبيع وأنواع الزهور التي نقشت ذلك البساط الأخضر بألوانها المتآلفة الرّائعة، وتأمل كيف ينتعش الفؤاد بروائحها الفواحة العجيبة، وصدق الله[6] القائل: ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.[7] فما الذي تراه في هذه المكونات التي يأمرنا الله عز وجل،– كما يقول ابن عطاء الله – بالنظر فيها؟

---

[1] - ينظر: المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.
[2] - سورة الأعراف، الآية : 143.
[3] - محمد سعيد رمضان البوطي، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[4] - سورة الأعراف، الآية : 143.
[5] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية، مرجع سابق، ص 25.
[6] - ينظر: المرجع نفسه، ص 26.
[7] - سورة الإسراء، الآية : 20.

إنك لترى فيها ما يسليك عن التلهف إلى تعجل لقائه... وإنك لترى فيها ما يؤنسك بذاته العليّة، وإن لم تكن ساعة اللقاء قد حانت بعد، بل إنّك لتنظر إليها بعينيك، فتغيبك بصيرتك عنها لتشهد الله في مكانها أمامك بصفاته وآلائه الأخاذة الباهرة، فكأنك من المكونات المتنوعة التي تراها أمام الله عز وجل، وتلك هي وحدة الشهود.

فإن طويت هذه الدنيا، بكل ما فيها من متاع، وتجاوز الناس مرحلة الحياة البرزخيّة، وقاموا جسدًا وروحًا لرب العالمين، فإن من الثابت يقينا أن الله يخلقهم خلقا جديدا ممتعِين بطاقات عضوية وجسدية متميزة عما كانوا عليه في دار الدنيا، كي يتأهل مستحقوا العذاب للمعاناة الجسميّة من العذاب الذي أعده الله لهم، ولكي يتأهل الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه في دار الدنيا لأصناف النعيم التي أعدها الله لهم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.[1]

إذن فرؤية العبد الصالح الذي ختم حياته الدنيوية بالحسنى، ربه يوم القيامة في جنان الخلد، أكدها الله عز وجل في مثل قوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾.[2] وزادها تأكيدا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في مثل قوله: "إنكم سترون ربّكم عيانا، كما ترون هذا القمر، لا تضامون[3] في رؤيته".[4]

أقول: مردّ هذه المسألة إلى قواعد العربية، ولم يقل جماهير علماء العربية أن "لن" تدل على التأبيد، وأوضح دليل من القرآن على ذلك قول الله تعالى عن اليهود الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه بعد أن طلب منهم أن يتمنوا الموت إذن ليستعجلوا لقاء الله الذي لا بد أن يكون قد برح بهم الشوق إليه: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾.[5]

[1] - محمد سعيد رمضان البوطي، المرجع نفسه، ص 27.
[2] - سورة القيامة، الآيات: 22- 23.
[3] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية، مرجع سابق، ص28.
[4] - متفق عليه من رواية جرير بن عبد الله قال: كنا عند رسول الله –صلى الله عليه وسلم- ننظر إلى القمر ليلة البدر وقال... الحديث.
[5] - سورة البقرة ، الآية : 95.

فقد عبر البيان الإلهي بكلمة "لن" وزاد النفي تأكيدا بكلمة "أبدا" ومع ذلك فقد أكد البيان الإلهي أن أصحاب النّار، واليهود الذين يتحدث الله عنهم هنا منهم يتمنون لو ماتوا لتخلصوا بذلك من عذابهم، فقال: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾.[1] فدلّ ذلك على أن "لن" لا تدل على التأبيد الذي يخترق حدود الحياة الدنيا إلى الآخرة، ودلّ ذلك على أن كلمة "أبدا" بعدها ناظرة إلى الوحدة الزمنية المحصورة في الحياة الدنيا وحدها.

إن الأدلة التي استند إليها جماهير المسلمين وأئمة أهل السنة والجماعة، لا يرقى إليها شك، سواء النصوص الصريحة،[2] التي جاء بها القرآن وأكدتها السنة، والأدلة العقلية التي ذكرناها قبل قليل.[3]

ولا تلتفت إلى التنطع المحجوج الذي تكلفه من قالوا إن "ناظرة" في قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾.[4] معناها منتظرة، والتقدير منتظرة نعيم ربها، إن "منتظرة" تتعدّى بنفسها، وناظرة متعدية بإلى، وناظرة بمعناها المعروف لا تحتاج إلى تقدير بل يفسدها التقدير، أما تحويلها بل تصحيحها إلى "منتظرة" يضطرها إلى التقدير إلى تقدير مفعول به لها وهو "نعم ربّها".

ثم ليقل لنا المعتزلة ومن تابعهم في الأخذ بهذا الوهم:

ما العزاء الذي بوسعهم أن يقدموه لعباد الله الذين برّح بهم الشّوق في دار الدنيا إلى لقاء ربّهم، إذا فوجئوا يوم القيامة، بأن آمالهم التي كانت مزدهرة في دار الدنيا برؤيته، خائبة باطلة، وأن رؤيتهم لله مستحيلة؟

ما العزاء الذي سيقدمه المعتزلة لهؤلاء النّاس، كي يتحقق لهم قول الله تعالى[5]: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.[1]

[1] - سورة الزخرف، الآية : 77.
[2] - محمد سعيد رمضان البوطي، المرجع نفسه، ص 31.
[3] - ينظر، المرجع نفسه، ص 32.
[4] - سورة القيامة، الآيات: 22-23.
[5] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية، ص 32.

3- التعليق والتحليل:

ما يمكن استجلاؤه من هذه الحكمة أنه على العبد إمعان النظر في هذه الدّار نعني طبعا الدّار الدّنيا هذه الأخيرة فيها ما ينم عن عظمة المولى عزّ وجل في مكوَّناته -بتشديد الواو المفتوحة- السماء وما فيها من كواكب سيارة ونجوم يهتدي بها السائرون، الأرض وبساطها الأخضر المترامي الأطراف ساحرا الناظرين والمتبصرين وكذا ولوج عميق البحار والغوص فيها بسرائر الأبدان والمتضمنة للنفس هذه الأخيرة ترى هذه العظمة بأنوار بصيرتها من وراء حجاب، وسيكشف لنا المولى جل وعلا مع المؤمنين حقا في الدار الآخرة عن كمال ذاته، فنراه حينذاك بأعيننا أي ببصرها،[2] كما قال اللّقاني:[3]

ومنه أن يُنظر بالأبصارِ[4] لكن بلا كيف ولا انحصارِ

للمؤمنين إذ بجائزْ عُلِّقت هذا وللمختار دنيا ثبتت [5]

أي أن إمعان النظر في مخلوقاته وعظمة المولى جل وعلا الجلية فيها إذا ما نحن نظرنا فيها بأنوار بصرنا، فهذا يكون داعيا وسببا لكشف الحجاب ورؤيته بأنوار بصيرتنا وسيكشف لنا مولانا عن كمال ذاته في الدار الآخرة.[6]

المبحث الرَّابع: باب الأخلاق.

1- الحكمة الأولى:

" **لا يُخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق**".

2- قول البوطي- رحمة الله عليه- فيها":

---

[1] - سورة الزخرف، الآية :71.

[2] - ينظر: عبد المجيد الشرنوبي، شرح الحكم العطائية، ص 94.

[3] - هو إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقاني، أبو الإمداد وبرهان الدين: فاضل متصوف مصري، مالكي، نسبته إلى "لقانة" من البحيرة بمصر، توفي بقرب العقبة عائدا من الحج، "1041ه/1631م".

[4] - قال الصّاوي في شرح هذا الشطر: أي رؤيته سبحانه وتعالى في الآخرة جائزة عقلا، واجبة شرعا، لورود الآيات والأحاديث والإجماع على حصولها.

[5] - وقال أيضا في شرح هذا الشطر: أي لم تثبت في الدنيا "يريد رؤية الله سبحانه وتعالى" إلا لنبينا -صلى الله عليه وسلم- كما رواه ابن عباس -رضي الله عنهما- وغيره، وقد نفتها السيدة عائشة -رضي الله عنها، ولكن ابن العباس -رضي الله عنهما- مقدم عليها لأنه مثبِت، وهو مقدم على النافي، على أنها لم تدرك زمنها.

[6] - ينظر: عبد المجيد الشرنوبي، شرح الحكم العطائية، ص94.

يلفت ابن عطاء الله أنظارنا إلى أنه لا المنطق ولا العقل ولا سلطان العلم، يجدي في إبعاد الأهواء والشهوات الجانحة عن النفس ولا في امتلاخ حبها والتعلق بها من القلب. ذلك لأن القناعات العلمية إنما تعمل وتتفاعل مع جنسها.

فالمنطق العلمي السليم يدحض المنطق العقلي المزيف، والقرار العلمي الذي تكاملت براهينه، يدحض الأوهام العلمية الخادعة، إذ المصدر في ذلك كله واحد، وهو الوعي والدراية الذهنية.

أما رغائب النفس وأهواؤها، فإنما تأخذ مؤيداتها من سلطان العواطف القلبية، لا من هدي العقل، وهذه حقيقة ثانية مقررة في قواعد علم النفس التربوي قديما وحديثا.[1]

وكم كان جان جاك روسو على حق، إذ أخذ يسخر ممن يظن أن مجرد الإيمان العقلي بالفضيلة يعتبر انتصارا لها وحماية لمبادئها، قائلا:

"كم قيل وأعيد القول عن الرغبة في إقامة الفضيلة على العقل وحده، وياله من أساس متين!!.." أي أساس هذا؟!.." إن الفضيلة، كما يقولون هي النظام. ولكن هل يستطيع الإيمان بالنظام أن يتغلب على مسرتي الخاصة؟

فليقدموا لي سببا واضحا كافيا لتفضيل النظام على متعتي، إن هذا المبدأ المزعوم ليس إلا لعبًا بالألفاظ، فالرذيلة أيضا حب النظام، بشكل مختلف، وكل الفرق أن الخير ينتظم الجزء بالنسبة للكل، أما الشر فينتطم الكل بالنسبة للجزء.

فلو لم يكن هناك مركز مشترك هو الإرادة الإلهية لكان الشرير وحده هو العاقل، ولكان الفاضل البار معتوها أو مخبولا.[2]

وقد أشبع العلماء المسلمون هذه الحقيقة العلمية بيانا وتفصيلا، وكم نبه إليها وأطال في بيانها حجة الإسلام الإمام الغزالي في أكثر من مكان في كتابه " إحياء علوم الدين"، وممن أطنب في بيانها بطريقة علمية متميزة الإمام الشاطبي في كتابه "الموافِقات" فقد بين الفرق

[1] - محمد سعيد رمضان البوطي، المجلد الرابع، الحكم العطائية شرح وتحليل، ص 5.
[2] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية شرح وتحليل، مرجع سابق، ص 6.

بين من دخلوا في عهد الإسلام من عوام المسلمين بسائق من القناعة العقلية المجردة أي دون دعم من العواطف القلبية، وخواصهم الذين دخلوا في الإسلام وتحملوا ربقة التكاليف التي فيه، بسائق إضافي هو عاطفة الحب والمهابة والتعظيم.[1]

إذن، فكما دخلت الأهواء والشهوات الغريزية ثم استقرت في القلب، بدافع من الحب والرغبة، فلن يتم خروجها من القلب إلا بدافع من حب آخر مناقض لها.

أما الحجج والمحاكمات العقلية، فهي تقرر وتبين وتكشف، ولكنها أضعف من أن تقتلع تلك الأهواء التي لقيت مستقرها داخل القلب.

فما هو التيار العاطفي الآخر المناهض لتلك الأهواء؟.

لقد حاول المربون وعلماء الاجتماع أن يكتشفوا هذا التيار العاطفي في" الأخلاق" التي تحتضن الخير وتنبذ الشر؛ وقالوا: إن الإنسان بفطرته محب للخير نزاع إليه، كاره للشر متباعد عنه، إذن فإن له من محبته للخير ما يقاوم محبة الأهواء والشهوات الجانحة.

ولكنهم فوجئوا بأن الخير ليس له معنى متفق عليه عند الناس جميعا، وبأن الشر أيضا ليس له معنى متفق عليه فيما بينهم جميعا.[2]

فقد آلت إذن محبة الناس لما يسمى "الخير" إلى محبتهم لأهوائهم وشهواتهم وآلت كراهيتهم لما يسمى "الشر" إلى كراهيتهم لتلك المبادئ والسلوكات التي لا تتفق مع أهوائهم وشهواتهم.

إذن لا بد أن نعود فنتطارح السؤال من جديد: ما هو التيار العاطفي الذي ينبغي اللجوء إليه، لنناهض به الأهواء الجانحة؟

إن دليل الاستقراء يقرر بأنه لا يوجد لهذا التيار إلا مصدر واحد، هو معرفة الخالق عز وجل، وإذا عرف الإنسان ربه، فلا بد أن يعرف ما يستتبع ذلك من تكريم الله للإنسان ومظاهر ذلك، وأن يتبين ذلك كله، عن طريق الإكثار من ذكر الله وربط النعم التي تتوارد

[1] - المرجع نفسه، ص 7.
[2] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية، مرجع سابق، ص 8.

إليه بالمنعم، وإن كوامن الفطرة الإيمانية تستيقظ في القلب، ومن أبرز ما تنطوي عليه هذه الكوامن، محبة العبد لمولاه.[1]

ثم إن هذه المحبة تزداد ظهورا، وسرعان ما تأخذ بمجامع القلب، مع الإكثار من ذكر الله والاستقامة على أوامره، وعندئذ لا بد أن يتراجع التيار القلبي الحافز على اتّباع الأهواء والشهوات، ليقف عند حد الحاجة الفطرية.

ولقد جعل ابن عطاء الله الخوف شريكا للحب في إخراج سلطان الشهوة من القلب.

ولكن ينبغي أن نعلم أن الخوف من الله ينقسم إلى نوعين:

أحدهما: الخوف من العذاب الذي يتوعد الله به عباده، ويشترك في[2] التأثر بهذا الخوف كل طبقات المسلمين وفئاتهم، ما داموا صادقين في إسلامهم.

ثانيهما: الخوف من التقصير في أداء حقوق حبه، وإنما يهيمن هذا الخوف على من استيقظت في قلوبهم كوامن محبة الله.

وهذا النوع من الخوف، هو خوف النخبة المتميزة من عباد الله الصالحين.[3]

3- التعليق والتحليل:

تعني الحكمة أن إخراج الشهوة المستولية على القلب مردّه هو الخوف والرهبة من المولى عز وجل هذا الخوف وتلك الرهبة المزعجة المتمكنة من القلب من شهود صفات جل جلاله، وكذا النظر في آياته المتضمنة والمبيّنة لما أعده للعصاة الجاحدين من عذاب مخز أليم، والشوق المقلق للمولى عز وجل والذي يرِد على القلب مردّه إلى شهود صفات جماله ومنشؤ النظر في الآيات المبنية المحتوية على ما أعده للطائعين المحدثين بنعم مولاهم من نعيم دائم مقيم.[4]

[1] - ينظر: المرجع نفسه، ص9.
[2] - المرجع نفسه، ص 10.
[3] - محمد سعيد رمضان البوطي، العطائية، شرح وتحليل، مرجع سابق، ص 11.
[4] - ينظر: عبد المجيد الشرنوبي، شرح الحكم العطائية، ص 137.

قال شيخنا أبو العباس الحضرميّ –رضي الله عنه–:" اعلم أن الموعظة الحقيقية هي جذب الحق لك ولطف الحق بك وأن يخلق الله في قلبك الخوف الشديد[1] الملازم لقلبك، وتستحضر عظمة الله تعالى، والخوف من الله تعالى، والشوق إلى الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾.[2]

ومن ميراث الخوف المزعج: العلم بأن الله لا يحب الهوى ولا يُقبل على صاحبه، فلذلك قال: كما لا يحب العمل المشترك كذلك لا يحب القلب المشترك.[3]

1- الحكمة الثانية:

" **كما لا يحب العمل المشترك، كذلك لا يحبّ القلب المشترك.**

العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يُقبِل عليه".

2- قول البوطي فيها:

يقول الله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾.[4]

ويقول:﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾.[5]

فهذه الآيات تدل بوضوح على أن الله إنما يقبل من العمل ما كان خالصا لوجهه، وإنما يتحقق ذلك بأن يكون العمل منزها عن ثلاثة أنواع من الشوائب، وهي:

أولا: شائبة الرّياء، أي قصد التحبب بالطاعة إلى الناس أو قصد الوصول بها إلى مصالح المرائي منهم.

ثانيا: التصنع في الطاعة، وإبرازها في مظاهر وهيئات محببة، ابتغاء لفت الأنظار.

[1] - أبو العباس احمد بن محمد-زروق، الحكم العطائية، ص 184.
[2] - سورة الذاريات، الآية 50.
[3] - أبو العباس احمد بن محمد- زروق، المرجع نفسه، ص 185.
[4] - سورة الكهف: الآية 110.
[5] - سورة البينة: الآية: 5.

ثالثا: العُجْب، وهو رؤية النفس في العمل، على حد تعبير الشيخ أحمد زروق، أي ينسب إلى نفسه مزايا الأعمال الصالحة التي يوفقه الله إليها.[1]

وتلتقي هذه الشوائب الثلاث في آفة واحدة، هي إشراك شيء آخر مع الله في العمل الذي يفترض ألا يراد به إلا وجهه.

وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قوله فيما يرويه عن ربه: " أنا أغنى الشُّركاء عن الشرك، فمن عمل لي عملا أشرك فيه غيري، تركته وشِركَه".[2]

إذن فالله لا يقبل العمل الذي تسربت إليه واحدة من هذه الشوائب الثلاث، وهذا هو الشطر الأول من هذه الحكمة، وإنما أورده ابن عطاء الله هنا، ليجعل منه مقدمة إلى الشطر الثاني منها، وهو المعنى المقصود بها.

والشطر الثاني قوله: والقلب المشترك لا يقبل عليه، أي كما أن الله لا يقبل العمل المشترك، فإنه لا يتجلى بشيء من ألطافه وواردات على القلب الذي تزاحم فيه محبة الأغيار محبة الله تعالى، وقد علمت مما مر بيانه أن إيمان العبد بالله لا يتم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.[3]

فأما محبة العبد لربه، فينبغي أن تفهم على حقيقتها دون أي تأويل، ولا عبرة لمن يتوهم أن محبة الإنسان إنما تتعلق بالمحسوسات التي تتعلق بها الأبصار أو الأسماع، فإن اللذائذ التي يتمتع بها الإنسان ليست محصورة في هذه الأصناف وحدها.

إن الجمال الذي هو من أهم عوامل الحب ينقسم إلى[4] قسمين"جمال للصورة الظاهرة التي يدركها البصر، وجمال للصورة الباطنة التي تدركها البصيرة، ولعل تأثير جمال الباطن على البصيرة أشد من تأثير الصورة على البصر.

[1] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية، مرجع سابق، ص 14.
[2] - رواه مسلم وابن ماجه من حديث أبي هريرة، واللفظ لمسلم.
[3] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية، مرجع سابق، ص 15.
[4] - المرجع نفسه، ص 17.

وقد أفاض الإمام الغزالي في بيان هذه الحقيقة، وفصل في ذلك وأطال، في كتابه الجليل" إحياء علوم الدين".

ومن قال: أن محبة العبد لله إنما تتمثل في الانقياد لأوامره والابتعاد عن نواهيه، فقد تاه عن معرفة الحقيقة وخلط بين الأسباب والنتائج.

فإن الانقياد لأوامر الله ثمرة لمحبة الله أو للمخافة منه، ولو فرغ شعور الإنسان منهما، لما شعر بوجود ما يقوده إلى الاستجابة لأمر ولا إلى الانتهاء عن نهي.[1]

فإن مما لا ريب فيه أن ما يناله العبد من محبة الله له، أغلى وأجل من كل ما قد يصل إليه منه من الأعطيات والأرزاق.

ألا ترى إلى قول رسول الله– صلى الله عليه وسلم–:" إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب".[2] فقد دل أولا على أن محبة الله للعبد أخص من الأعطيات والمكرمات التي تفد إليه منه عز وجل. ودل ثانيا على أن محبة الله ليست هي عين الأجزية التي يكرم الله بها عباده، كما قالوا، بل الأجزية واحدة من آثارها وثمارها.

3– التعليق والتحليل:

ما نستشفه من الحكمة أن المولى جل وعلا لا يحب عملا تشوبه شائبة الرياء مما يكون سببًا في ملاحظة الخلق، وكذا لا يحب المولى عز وجل القلب الذي يكون فيه محبة غيره، وبما أن المحبة تعني ميل[3] القلب مستحيلة على المولى عز وجل بين المراد منها بقوله: العمل المشترك لا يقبله، وبما ان الإخلاص غير موجود فيه فان صاحبه لا يثاب عليه، أما القلب المشترك لا يقبل عليه: بمعنى أن المولى عز وجل لا يرضى عن صاحبه لعدم الصدق في المحبة.[4]

[1] - المرجع نفسه، ص 18.
[2] - أخرجه الحاكم وصحح إسناده، والبيهقي في شعب الإيمان، من حديث عبد الله بن مسعود.
[3] - ينظر: عبد المجيد الشرنوبي، شرح الحكم العطائية، ص 137.
[4] - ينظر: المرجع نفسه ، ص 138.

كما لا يحب العمل المشترك كذلك لا يحب القلب المشترك، فالعمل المشترك هو الذي تشوبه العناصر الثلاثة سالفة الذكر الرياء والتصنع وكذا التكلف بالهيئات وكلها لأجل الخلق، فالله سبحانه وتعالى يقبل من العمل ما كان صافيا من هذه الشوائب، خالصا لوجهه الكريم وجلاله العظيم، وكذا القلب المشترك هو ما احتوى الهوى والأنس بالخلق والاستناد إليهم فمعنى المحبة من الله ترجع للرضا والقبول، لأجل ذلك قال: العمل المشترك لا يقبله والقلب المشترك لا يُقبِل عليه.[1]

قال الفقيه القاضي أبو عبد الله المقري رضي الله عنه:" القلب إيوان الملك ويسعى[2] وعِزُّ الملك يأنف من ذل المشاركة" وقد أشار بكلامه لحديث:" لا تسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن"، يعني من حيث المعرفة والاعتقاد، لا من حيث الحلول والإيجاد،[3] فالمعرفة الإيمانية الحقة والاعتقاد الذي لا تشوبه شائبة الزيف والغموض هو الاعتقاد الخالص المتجذر بقلب المؤمن وكيانه باعث من بواعث إجلال وتعظيم المولى جل وعلا جلالا وعلوا كبيرا.[4]

1- الحكمة الثالثة:

"أنوار أُذِن لها في الوصول، وأنوار أُذِن لها في الدخول، ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشوًّا بصور الآثار فارتحلت من حيث نَزلتْ".

2- قول البوطي- رحمة الله عليه- فيها:

هما حكمتان منفصلتان أولاهما قوله: " أنوار أذن لها في الوصول، وأنوار أذن لها في الدخول".

والثانية قوله" ربما وردت عليك الأنوار، فوجدت القلب محشوا بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت".[5]

---

[1] ينظر أبو العباس أحمد بن محمد- زروق، الحكم العطائية، ص 185.
[2] - في نسخة الدار:" القلب إيوان الملك وعلى الملك أن يأنف من ذل المشاركة".
[3]- ابو العباس أحمد بن محمد- زروق، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
[4] - ينظر: أبو العباس أحمد بن محمد- زروق- الحكم العطائية، ص185.
[5] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية، مرجع سابق، ص 23.

الأنوار، جمع، ومفرده نور، والنور الأداة التي يتم بها إدراك الحقائق.

فإذا كانت حقائق مادية كالصور والأشكال، فالنور الذي يتم إدراكها بها، هو النور الذي أودعه الله في العين الباصرة، ولا بد لها من نور مكافئ تفد إليها وتمتزج بها، هو نور الشمس وما قد يتفرع عنها.

وإذا كانت حقائق معنوية كمعرفة الله وصفاته، ومعرفة النهاية والمآل، فالنور الذي يتم به إدراكها هو ذاك الذي يشرق من الروح الإنسانية على الدماغ ويستقر هديًا في القلب.

ولابد له أيضا من نور مكافئ، ويتمثل في تجليات الله على القلب بألطافه ورحماته وإلهاماته.

فالناس كلهم يتمتعون إذن بالنور الذي يشرق من الروح على الدماغ، فيتكون من ذلك ما يسمى بالوعي أو العقل.[1]

ولعل الغرض في هذه الحكمة لا يتعلق بالنور الداخلي الذي يتمتع به الناس جميعا على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم، وهو ذاك الذي يشرق من الروح على الدماغ، أو على حجيرات الدماغ، فيتكون من ذلك ما نسميه العقل أو الوعي، وإنما يتناول الحديث هنا ذلك النور المكافئ الآتي من الخارج، والمتمثل في تجليات الله على القلب.

فيقول ابن عطاء الله عن النور الخارجي المقبل على القلب من تجليات الألطاف الإلهية: إن منه ما يصل إلى القلب، ولكنه لا يتغلغل في سويدائه، بل يقف منه عند حدود المدخل أو الباب، ومنه[2] ما يؤذن له بالدخول والتغلغل في سويدائه، وهذا يقرره الجزء الأول من الحكمة.

فما هي الأفئدة التي ليس فيها استعداد لقبولها، ولماذا لا تجد لديها الاستعداد؟

أجاب عن ذلك ابن عطاء الله بقوله: " فوجدت القلب محشوا بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت".

[1] - المرجع نفسه، ص 24.
[2] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية ، مرجع سابق، ص 25.

والمراد بصور الآثار الأهواء والشهوات والرغائب الغريزية، التي احتضنها الخيال ثم استقرت أحلاما وأمنيات في القلب، هذا إلى جانب ما قد عشش فيه من أحقاد وضغائن في حق أناس اهتاجت بينهم وبين صاحب هذا القلب عوامل التنافس على مناصب وظيفية أو أسبقيات مالية...[1]

إنك إن نظرت إلى حال أهل الدنيا، تجد واقعهم مصداقا لهذا الذي يقرره ابن عطاء الله.

وكلمة "أهل الدنيا" تلخيص في التعبير عمن حشيت قلوبهم بالشواغل والأحلام والمشاعر التي حثتك عنها....

إنك لتنظر إلى حال صاحب هذا القلب المحشو بصور الآثار، على حد تعبير ابن عطاء الله، فتجده متشاغلا عما يسمع، بل مشغولا عنه بالكثير الذي يجول في خاطره، ولربما قرعت سمعه آيات يسري من معانيها التي تتنزل من علياء الربوبية إلى القلوب، مثل التيار الكهربائي الذي يسري خفيا في العروق والأعصاب، ولكنه لا يحس بها ولا يجد لها أثرا في نفسه ولا هزة في قلبه.

وآية ذلك، أنك قد تنظر إلى شخص آخر يجلس إلى جانبه، يسمع الذي يسمع، ويتلقى الآيات التي يتلقاها ذلك الذي يجلس في جواره، فيسري من قبسها الوهاج إلى قلبه ما يشعل فيه فتيله المنطفئ، يلهب فيه كوامن محبة الله.[2]

ولكن، لعلك تسأل: فمن أين استقى ابن عطاء الله هذا الذي يقوله عن ورود الأنوار ودخولها أو رجوعها؟

أقول: إنه كغيره من العلماء استقاه مما دل عليه قول الله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ

[1] - المرجع نفسه، ص26.
[2] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية ، مرجع سابق، ص 27.

صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّه الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾.[1]

وقد فصل ذلك رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وبين أثر النور الرباني المتوجه إلى القلب، في الحديث الذي يرويه عبد الله بن مسعود، قال: تلا رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام". قالوا: يا رسول الله، ما هذا الشرح؟ قال: "نور يقذف به في القلب" قالوا يا رسول الله: فهل[2] لذلك من إمارة تعرف؟.قال: "نعم، التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل الفوت".[3]

فإن قلت: فإن الآية التي ذكرتها تدل على أن الله هو الذي إن شاء أدخل النور في طوايا القلب، وليس كما يقول ابن عطاء الله، ممن أن دخول النور في القلب وعدمه،[4] مردهما إلى فراغ القلب من الأغيار وعدمه، أو من" صور الآثار".

والجواب أن الأمر مرده دائما إلى إرادة الله، غير أن البيان الإلهي قرر أكثر من مرة، أن إرادة الله إذ تتجه إلى شرح صدر فلان، وإلى تضييق صدر فلان آخر، لا تتجه إلى ذلك اعتباطا، قال الله تعالى: ﴿وما كان ليضيع إيمانكم﴾. وهو القائل: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى ﴾[5]. قال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ .[6]

فهذه الآيات كلها تلتقي على قرار واحد يدلي به بيان الله عز وجل، وهو أن الله لا يزج أحدا من عباده في تيه الضلالة اعتباطا[7] دون سبب.

---

[1] - سورة الأنعام، الآية، 125.
[2] - محمد سعيد رمضان البوطي، المرجع نفسه، ص 28.
[3] - رواه ابن جرير بطرق مرسلة ومتصلة من حديث ابن مسعود، وأخرجه الحاكم والبهيقي وابن أبي الدنيا بطرق مرفوعة، كلها من حديث ابن مسعود.
[4] - ينظر: محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية، مرجع سابق، ص 29.
[5] - سورة ال عمران، الآية" 195.
[6] - سورة محمد ، الآية: 17.
[7] - محمد سعيد رمضان البوطي، المرجع نفسه، ص 29.

إذن فانشراح الصدر إنما يكون ثمرة لدخول الأنوار العلوية الآتية من تجليات الله على عباده، في سويداء القلب، وضيق الصدر إنما يكون ثمرة للأسباب التي حالت دون دخول هذه الأنوار إلى القلب، تتمثل هذه الأسباب في أنه يكون محشوّا بصور الآثار، أي بزخارف الدنيا كما قال ابن عطاء الله.[1]

وسبحان من ترك لعباده الاختيار وأقدرهم على اتخاذ ما يشاؤون من قرار، بعد أن أمر فعزم عليهم الأمر، وأنذرهم بطشته إن تناسوا عبوديتهم له وخرجوا عن ربقة التكليف.

بقي أنك قد تقول" فإذا هيمنت الأهواء على قلبي وهجمت[2] الرغائب الدنيوية عليه في غفلة مني، أليس لي من سبيل أعود منه بقلبي إلى سابق حالة نقائه وطهره؟

والجواب أن العلاج موجود والسبيل مفتوح، إنما يتمثل كل منهما في صدق الالتجاء إلى الله، نسأله أن يطهر قلوبنا من الشوائب والأدران، وأن يفتح أبوابه ونوافذه أمام الأنوار القدسية الهابطة إلينا من علياء ربوبيته.[3]

3- التعليق والتحليل:

يعني الجزء الأول من الحكمة أنوار أذن لها في الوصول، وأنوار أذن لها في الدخول، تعني أن كل ما يرد على القلب من الأسرار الإلهية الغيبية وتلك العوالم الخفية التي تتراءى فيها المعارف الربانية إنما تنقسم إلى قسمين اثنين:

أنوار أذن لها في الوصول إلى ظاهر القلب لا غير، فيشاهد معها نفسه وربه ودنياه وآخرته، وأنوار أذن لها في الدخول إلى عميق القلب وصميمه وسويدائه، فلا يكون من العبد إلا أن يحب إلا الله عز وجل، طبعا يكون منصاعا لأوامره متجنبا لنواهيه، فاعلا ما يحبه ويرضاه المولى عز وجل.

[1] - المرجع نفسه، ص 30.
[2] - المرجع نفسه، ص 31.
[3] - محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية، مرجع سابق، ص 32.

ما يمكن استجلاؤه من الجزء الثاني من الحكمة: ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشوا بصور الآثار، فارتحلت من حيث نزلت.

ما يمكن سبره من هذا الجزء من الحكمة أن الأنوار الإلهية القدسية إذا ما وردت على قلب العبد هذا الأخير ان كان قلبه محشوا بصور الآثار الكونية: من زخرف الدنيا وبهرجتها من أموال وبنين وغيرها الكثير، فإن هذه الأنوار ارتحلت إلى عليائها، لأنها أقدس من أن تحِل في هذا القلب الممتلئ والمدنس بالأغيار.[1]

[1] - ينظر: عبد المجيد الشرنوبي، شرح الحكم العطائية، ص 138.

المبحث الأول: تاج الدين بن عطاء الله السكندري وحكمه

أولا: ترجمة موجزة عن ابن عطاء الله السكندري

إن الوقوف على باب الله لهو من أعظم ما ينهجه الإنسان العارف قصد مناجاة الله والفوز برضاه، مقرا بإحسانه وعظيم مننه، فبدت صنوف شتى من الطرق والمذاهب تصب كلها في منبع واحد الاّ وهو منبع الشريعة والعقائد. بلغ السادة الصوفية فيها شأوًا عظيما فكانت لهم وقفات تركت أثرها جليا في هذا الميدان التوحيدي. ومن بين رجالات التصوف وأربابه الشيخ الإمام تاج الدّين ابن عطاء الله السكندري.

أ- أصله ونسبه:

تاج الدّين، ومنبع أسرار الواصلين، أبو الفضل أحمد بن محمد إبن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله، الجذامي نسبا، المالكي مذهبا الإسكندري دارا، القرافي مزارا، الصوفي حقيقة، الشاذلي طريقة، أعجوبة زمانه، ونخبة عصره وأوانه، الجامع لأنواع العلوم من تفسير، وحديث وفقه، وتصوف ونحو، وأصول وغير ذلك.

كان ابن عطاء الله، متكلما على طريقة أهل التصوف، واعظا إنتفع به خلق كثير وسلكوا طريقه[1].

ب- مولده ونشأته:

ولد ابن عطاء الله حولي سنة 658 هـ بمدينة الإسكندرية، ويبدو أن أفراد أسرته التي نشأ فيها كانوا منشغلين بالعلوم الدينية وتدريسها، لأن جده لوالده الشيخ أبي محمد عبد الكريم بن عطاء الله كان فقيها معروفا في عصره، ولأن ابن عطاء الله نشأ كجده فقيها منشغلا بالعلوم الشرعية وكان يطمح إلى بلوغ منزلة جده.

[1]- أبو العباس أحمد بن محمد- زروق، الحكم العطائية، تحقيق ودراسة رمضان محمد بن علي البدري، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط2، 2005م، ص9.

جـ- علومه ومعارفه:

إذا جئنا إلى الحياة العلمية لأبي عطاء الله فقد ميزتها ثلاثة أطوار: طوران منهما بمدينة الإسكندرية وطور ثالث وأخير بمدينة القاهرة، فالطور الأول بمدينة الإسكندرية هو الواقع قبل عام 674هـ وفيه نشأ بن عطاء الله طالبا لعلوم عصره الدينية واللغوية من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو وبيان غير ذلك[1].

ثم توّج حياته العلمية بالسلوك التربوي والسعي إلى تزكية النفس من أمراضها التي سماها الله "باطن الإثم" أما أحدهما فهو الشيخ أبو العباس المرسي أحمد بن عمر الذي اشتهر إلى جانب غزارة العلم بالصلاح والتقوى، أما الآخر فهو الشيخ أبو الحسن الشاذلي علي بن عبد الله. وهو المرجع الأول في الطريقة الشاذلية.[2]

أما الطور الثاني فهو يبدأ من سنة 674هـ أربع وسبعين ستمائة للهجرة وهي السنة التي صحب فيها شيخه أبا العباس المرسي وينتهي بارتحاله من الإسكندرية إلى القاهرة وفيه تصوف على طريقة الشاذلي ولم ينقطع في نفس الوقت عن طلب العلوم الدينية، ثم اشتغل بتدريسها.[3]

لقد كانت رحلة الشيخ بن عطاء الله العلمية والمعرفية، حافلة بالعطاء الديني الجليل وسراجا وهاجا للآخذين من علومه والهداة الذين ارتضوا النّهج المحمدي القويم منهجاً.

د- أقوالـه:

إذا ذكرنا ابن عطاء الله السكندري تبادر إلى أذهاننا زعامته، وكذا تأريخه للطريقة الشاذلية، هذه الأخيرة كانت مرجعا وسندا لكافة الطرق الشاذلية في مصر، والجدير بالذكر أن الشيخ ابن عطاء الله جمع الأقوال الشيخ أبو الحسن الشاذلي، وتلميذه أبو العباس المرسي.

---

[1]- محمد عبد المنعم خفاجي، التصوف في الإسلام وأعلامه، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2002م، ص58.
[2]- محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية شرح وتحليل، دار الفكر، دمشق، ط5، ط1، 2010م- 2001م، ص9.
[3]- محمد عبد المنعم خفاجي، المرجع نفسه، ص58.

قال رحمه الله: "وسبب اجتماعي به (يعني شيخه) أن قلت في نفسي بعد أن جرت المخاصمة، دعني أذهب فأنظر إلى هذا الرجل، فصاحب الحق له أما رأت، فقال: فأتيته، فوجدته يتكلم في الأنفاس التي أمر الشارع بها، فأذهب الله ما كان عندي"[1].

ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة، ونبينا صلى الله عليه وسلم هو عين الرحمة قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.[2] فدعا صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى بالبصيرة الواضحة، والبينة الفائقة، وقرب المدارك، وبين المسالك، وحث على سلوك سبيل الهدى، واجتناب سبيل الردى، فما ترك شيئا يقرب إلى الله إلا ودعا إليه، ولا أدبا يصلح أن يكون العبد به مع الله تعالى إلا وحث عليه ولا شيئا يشغل عن الله تعالى، إلا حذر العباد منه، ولا عملا يقطعهم عن الله تعالى، إلا وأخرجهم عنه، لا يألو نصحا في تخليص العباد من أحوال القطيعة ومواطن الهلكة إلى أن ترحل ليل الشّرك وانقضت أغباره وأضاء نهار الإيمان وأشرقت أنواره فرفع –صلى الله عليه وسلم– من الدين لواءه وتمم نظامه وقرر فرائضه وأحكامه، وبين حلاله وحرامه، وكما بين للعباد الأحكام كذلك فتح لهم باب الأفهام حتى قال الراوي: لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن الطير يتحرك في السماء فتستفيد منه علما بحق قال الله تعالى: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾[3] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾.[4]

قال رضي الله عنه: صلاح العبد في ثلاثة أشياء: معرفة الله ومعرفة النّفس، ومعرفة الدنيا، فمن عرف الله خاف منه ومن عرف الدنيا زهد فيها ومن عرف النّفس تواضع لعباد الله.

---

[1]- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الزندي، غيث المواهب العليّة في شرح الحكم العطائية، اعتنى به أبو الخير، دار الخير، دمشق- بيروت، ط1، 2004م، ص6.

[2]- سورة الأنبياء، الآية: 107.

[3]- سورة البقرة، الآية: 256.

[4]- سورة المائدة، الآية: 3.

و قال رضي الله عنه: قال لي شيخي لا تصحب إلا من يكون فيه أربع خصال الجود في القلة، والصفح عن الظلمة، والصبر على البلية، والرضى بالقضية.

قال رضي الله عنه: الناس على ثلاثة أقسام: قوم غلبت حسناتهم سيئاتهم، فهم في الجنة قطعا وقوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فلا يدخلون النار قطعا، وقوم غلبت سيئاتهم حسناتهم، فلا يدخلون في النار قطعا.[1]

وقال رضي الله عنه: جميع أسماء الله تعالى إذا أسقطت منه حرف أذهبت دلالته على الله كالعليم والقادر والرحيم، وغير ذلك من أسمائه الحسنى إلا اسم الله، فإنك إذا أسقطت الألف بقي "لله" وإذا أسقطت اللاّم بقي "له" وإذا أسقطت اللام الثانية بقي "هو" وهو النهاية في الإشارة وأنشد الحسين بن منصور الحلاج شعرًا:

أحرف أربع بها هام قلبي وتلاشت بها همومي وفكري

ألف ألف الخلائق بالصنع ثم لام على العلامة تجري

ثم لام زيادة في المعاني ثم هاء بها أهيم تـدري.[2]

لقد طالعت قلوب شعراء المتصوّفة ما في سرائر الأبدان فجادت بتلك المعاني الراقية الرائقة عاكسة ذلك الفيض الروحي والإلهام القدسي الجلي، كيف لا وهو عالم الحضرة الإلهية والعاطفة الإسلامية الجامحة والنور الديني الذي ملأ سماء الإيمان.

يقول بن عطاء الله: "...فأتيت إليه فاستؤذن عليّ، فلما دخلت عليه قام وتلقاني ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلا واستصغرت نفسي أن أكون أهلا لذلك، فكان أول ما قلت له: يا سيدي أنا والله أحبك، فقال: أحبك الله كما أحببتني، ثم شكوت له ما أجده من هموم وأحزان، فقال: أحوال العبد أربع لا خامس لها: النعمة والبليّة والطاعة والمعصية، فإن كنت بالنعمة فمقتضى الحق منك الشكر، وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق منك الصبر، وإن كنت بالطاعة

[1]- تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن، وضع حواشيه وخرج أحاديثه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، دت، ص136.

[2]- المرجع نفسه ، ص 137.

فمقتضى الحقّ منك شهود منته[1] عليك فيها، وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار، فقمت من عنده وكأنما الهموم والأحزان ثوبا نزعته... ثم سألني بعد ذلك بمدة: كيف حالك؟ فقلت: افتش عن الهم فلا أجده فقال:

ليلـى بوجهك مشرق وظلامه في الناس ساري

الناس في سدف الظلام ونحن في ضوء النهار

"الزم فوالله لئن لزمت لتكونن مفتيا في المذهبين، يريد مذهب أهل الشريعة ومذهب أهل الحقيقة".

والمتأمل في هذه العبارات التي يصور فيها إبن عطاء الله لقاءه الثاني بشيخه يرى أن حالة القلق لنفسي المبهم عنده قد تحولت إلى حالة من الاستقرار النفسي، ومبعث هذا الاستقرار أنه أقبل على شيخه والحب يملأ قلبه له، فشكا إليه ما كان يجده في نفسه من الهموم والأحزان التي كانت تؤرق نفسه[2].

ابن عطاء الله السّكندري شخصية تتم عن فكر ديني ثاقب، طالما عكس ما يجول في خاطره من رؤى وأفكار، كانت تدور في فلك الشريعة الإسلامية والنهج المحمدي القويم. كانت له وقفات حملت بين طياتها إجابات طالما حيرت العقول والألباب حول عوالم النفس والأكوان، وكانت أقواله دررا وجواهر ثمينة، فكلما قرأناها إلا وانتابنا ذلك الشعور الفريد من نوعه، وكأنّه خُلق بنا في عوالم كلها طهر وصفاء ونقاء بعيدة كل البعد عن عالم الماديات الجامحة هذه.

هـ- شيوخه:

حفظ ابن عطاء الله تراث الشيخين الجليلين والإمامين القطبيين أبو الحسن الشاذلي وكذا أبو العباس المرسي.

[1]- محمد عبد المنعم خفاجي، التصوف في الإسلام وأعلامه، ص 58.
[2]- المرجع نفسه ، ص 59.

1- أبو الحسن الشاذلـي: شيخ الطريقة الشاذلية، وهو السيد الأجل العارف المحقق بالعلم، الصمداني المحمدي العلوي الحسيني الفاطمي[1]، الأستاذ الواصل المربي الفاضل أبو الحسن علي الشاذلي الحسني بن عبد الله بن عبد الجبار بن سيد بن هرمز بن حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن علي بن أحمد بن محمد بن عيسى بن إدريس، المبايع له ببلاد المغرب بن عبد الله بن الحسن المثنى بن سيد شباب الجنة وسبط خير البرية أبي محمد الحسن بن أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والسيدة فاطمة الزهراء بنت -الرسول صلى الله عليه وسلم-.

كانت ولادته -رضي الله عنه- سنة إحدى وخمسين وخمسمائة وينسب إلى شاذلة قرية بإفريقيا قرب تونس ونشأ بها، واشتغل بالعلوم الشرعية حتى أتقنها وصار يُناظر بها مع كونه ضريرا، وكان الشيخ أبو الحسن يحضر مجلسه أكابر العلماء كابن الحاجب وبن عبد السلام عز الدين وبن عصفور حج عدة مرات، ومات بصحراء عيذاب في حميرا وهو قاصد الحج، فدفن هناك وكان ذلك في شهر ذي القعدة سنة ست وخمسين وستمائة[2].

2- أبو العباس المرسي: وهو تلميذ أبو الحسن الشاذلي ومن مريديه الأجلاء، صاحب زهد وورع وتقوى. قاد المدرسة الصوفية بعد وفاة شيخها أبو الحسن الشاذلي رحمة الله عليه.

ولد أبو العباس المرسي سنة ست عشرة وستمائة للهجرة، بمرسية الأندلسية وينسب إليها، كان أبوه عمر بن علي من كبار تجار بلده، وكانت أمه فاطمة بن عبد الرحمان المالقي إمرأة صالحة، جعلت نصب عينيها تربية ولديها: أبي عبد الله جمال الدين وأبي العباس وفي سنة أربعين وخمسمائة للهجرة كان أبو العباس قد بلغ من العمر أربعة وعشرين عاما، حيث عقد الوالد العزم على أداء فريضة الحج، مصطحبًا زوجته وولديه، فكان في هذه الرحلة غرق الوالدين واستشهادهما بالقرب من "بونـة" وكتبت النجاة لأبي العباس وأخيه، ونزلا أرض تونس، هذه الأخيرة التي نزل بها شيخ وأستاذ أبي العباس، الشيخ أبو الحسن الشاذلي ولقائه

[1]- أبو العباس أحمد بن محمد- زروق، الحكم العطائية، ص22.
[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص23.

به، فصار أبو العباس من مريديه وأتباعه، والجدير بالذكر أن أبا العباس كان معلما للصبية في تونس إلى جانب إلمامه بالأمور التجارية شأنه في ذلك شأن أبيه وأخيه[1].

تزوج أبو العباس من ابنة أستاذه وأنجب منها محمدا وأحمد وبهجة، وهي التي تزوجها تلميذه ياقوت العرشي وكان لأهل الإسكندرية فيهم جميعا ثقة اعتقاد، ومن أشهر تلاميذه بالإسكندرية صفوة نختار من أعلامها البوصيري، وبن عطاء الله السكندري، وياقوت العرشي، ومن سار على نهجهم من بعدكم كالقباري وبن الحاجب والشاطبي.

كانت وفاة أبو العبّاس في خمس وعشرين من ذي القعدة سنة ست وثمانين وستمائة للهجرة بالإسكندرية ودفن حيث قبره الآن من مسجده المشهور، ثم دفن من بعده ولداه، وعدد كبير من الصالحين من تلاميذه وأتباعه[2].

كان شيخا ابن عطاء الله السكندري أبو الحسن الشاذلي وأبو العباس المرسي، القدوة والمثل الأعلى والسراج المنير الذي أضاء نهج بن عطاء الله، حيث كان لهما الأثر الجلي في حياة بن عطاء الله، فكثيرا ما كان يردد أقوالهما ومناقبهما كما فعل ذلك في كتاب لطائف المنن هذا على سبيل المثال لا الحصر.

و- مؤلفاته:

للشيخ بن عطاء الله مؤلفات عديدة تصب كلها في قالب التوحيد والشريعة ذات مستوى عقائدي رفيع، ينم عن تلك الصلة التي تربط العبد بالله وكذا المريد بشيخه، وعلى رأسها وأعظمها وأجلها نجد:

1-الحكم العطائيّة وقد نالت شروحها الداني والقاصي، وقرأها الكبير والصغير ومازالت مرجعا وافيا، ولونا مميزا من ألوان السلوك الإنساني، والمعراج إلى حضرة القدس الأعلى.

2-التنوير في إسقاط التدبير[1].

---

[1]- محمد عبد المنعم خفاجي، التصوف في الإسلام وأعلامه ، ص54.
[2]- المرجع نفسه، ص55.

3-لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن.

4-تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس[2].

5-مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح.

6-القول المجرد في الإسم المفرد[3].

7-التنوير.

8-عنوان التّوفيق وهو شرح لقصيدة العارف بالله سيدنا أبي مدين التلمساني.

و كانت ولا زالت مؤلفات الشيخ بن عطاء الله مرجعا أساسيا ومهما لكل مسلم ومريد باعثة تلك المسحة الدينية الصافية من كل الأدران والتي طبعت حياة السالكين نهج الشريعة.

ز- وفاتـه:

توفي رضي الله عنه بالمدرسة المنصورية بمصر. ثالث عشر جمادى الآخرة سنة سبع وتسعمائة للهجرة، ودفن بسفح جبل المقطم بزاويته التي كان يتعبد فيها، ومقامه فيها يُزار ويعرفه الكبير والصغير، ويتوسل به إلى الله الغني والفقير نفع الله به المسلمين[4].

و ما يمكن قوله إن تاج الدين ابن عطاء الله السكندري هو الركيزة الأساسية، والركن الركين في الطريقة الشاذلية الصوفية، وشيخها الجليل، فهو الصوفي والفقيه المفتي في المذهبين، جمع بين التشريع والتحقيق، نفع الله به الإسلام والمسلمين.

ثانيا: كلمة عن الحكم العطائية:

الحكم العطائية هي أفضل ما ألف الشيخ بن عطاء الله على الإطلاق، حيث كانت مثلا للمعنى التوحيدي الراقي وكذا للسر القدسي الكامن بين تضاعيفها؛ فقد حررت الإنسان من سفاسف الأمور ورقت به إلى الصدق مع الله ومراقبة الأنفاس والإخلاص في شتى مناحي الحياة.

---

[1]- أبو العباس أحمد بن محمد- زروق- الحكم العطائية، ص10.
[2]- حقق هذه الرسالة الموسومة بـ"تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس" وأخرجها الإخراج المميز محمد علي بحري.
[3]- أبو العباس أحمد بن محمد- زروق- المرجع نفسه، ص11.
[4]- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الزندي، غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، ص6.

أ- تعاريفها وتصانيفها:

الحكم العطائية كتاب ألفه الإمام الجليل بن عطاء الله السكندري الذي يجمع بين رئاسة علوم الشريعة وعلماء الشريعة، ورئاسة علوم الحقيقة وعلماء الحقيقة، فكان عالما مستشرعا متحققا بل رأس علماء التشريع وعلماء التحقيق[1].

و كتاب "الحكم العطائية" مجموعة من الحكم" صفيت من ناحية الأسلوب والصياغة فكانت مثلا عاليا للأدب الرفيع يضع بن عطاء الله في مصاف أعلام الأدب الفصيح البليغ.

و صفيت من ناحية الفكرة، فكانت مثلا عاليا للفكر الصوفي، أو للنور الصوفي، أو لمعراج الروح في مستوى يضع ابن عطاء الله في الصف الأول من صفوف المقربين[2].

الحكم العطائية هي أفضل ما صنف في علم التوحيد، وأجل ما اعتمده بالتفهم والتحفظ كل سالك ومريد، ذات عبارات رائقة ومعان حسنة فائقة، قصد فيها مؤلفها إلى إيضاح طريق العارفين والموحدين، وإبانة مناهج السالكين والمتجردين[3].

وهي حكم منثورة على لسان أهل الطريقة، ولما صنفها صاحبها عرضها على شيخه أبي العباس المرسي فتأملها وقال له: لقد أتيت يا بني في هذه الكراسة بمقاصد الإحياء وزيادة،ولذلك تعشقها أرباب الذوق لِما رقّ من معانيها وراق وبسطوا القول فيها وشرحوها كثيرا[4].

ب- محاورها:

تنقسم حكم العطائية إلى ثلاثة أقسام أو محاور أساسية هي:

1. القسم الأول: يدور على محور التوحيد وحماية المسلم من أن يتسرب إليه شيء من المعاني الخفية الكثيرة للشرك.
2. القسم الثاني: يدور على محور الأخلاق وتزكية النفس.

---

[1]- زروق، شرح الحكم العطائية، د ط، د ت، بيت الحكمة، ص9.
[2]- المرجع نفسه، ص11.
[3]- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الزندي، غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، ص6.
[4]- أبو العباس أحمد بن محمد- زروق- الحكم العطائية، ص10.

3. أما القسم الثالث: فيدور على محور السلوك وأحكامه المختلفة[1].

جـ- شروح المشايخة للحكم وأقوالهم فيها:

يقول الشيخ العارف المحقق، فريد عصره، أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي عرف بزروق إن أجل كتاب وقع للسادة الشاذلية ومن في معناهم، وكذا أنفعه لكل مريد صادق سالك كتاب "الحكم العطائية الشاذلية التوحيدية العرفانية الوهبية" عباراته رائقة جامعة، وإشارته فائقة نافعة، تثلج الصدر وتبهج الخاطر، وتحرك السامع لها والناظر، مع تداخل علومه وحكمه، وتناسب حروفه وكلمه، إذ كله داخل في كله وأوله مرتبط بالأخير من قوله، بل كل مسألة منه تكمله لما قبلها وتوطئة لما بعدها، وكل باب منه كالشرح الذي قبله والذي قبله أيضا كأنه شرح له فكل حكمة أو كلمة إنما هي كالتكملة أو كالمقدمة. فأوسطه طرفاه[2]، وآخره مبتداه وأوله منتهاه، يعرف ذلك من اعتنى بتحصيله.

و من الآراء أو بالأحرى المواقف التي كانت ذات أثر طيب نذكر ما للسيد الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عباد النفري نسبا، المالكي مذهبا، فإنه أكمل كتابه واعتمد فيه على النقل وتحصيل الفوائد المحتاج إليها، فأتى بالعجب العجاب من ذلك، وآثر السلامة فاقتصر على التقرير.

و ممن علق على هذا الكتاب الشيخ أبو القاسم الرماح أحد عدول "طرابلس" رحمة الله عليه، إذ كان رجلا صالحا، حسن النية جميل الحالة، وحاصل كتابه: أنه وقع لكل حكمة خطبة وجمع كثيرا من كلام بن الفارض، والحاتمي وغيرهما على غير مناسبة، فالله ينفعه بنيته.

ومنن علق عليه أيضا الشيخ أبو المواهب محمد، المعروف "ابن زغوان" قديما، تونسي الدار، توطن مصر، وأخذ عن بيته الوفائية وبشر به بعضهم قبل قدومه، ولقبه "أبي

[1]- يريد الشيخ رحمه الله تعالى القول: إن الحكم وحدة واحدة وذلك على خلاف ما يظن بعض الناس من أنها متناثرة لا رابط بينها ولا تجمعها وحدة ولا تربطها رابطة التكامل ولقد خفيت هذه الوحدة مثلا على الدكتور زكي مبارك فقال: "و ليس بين الحكم العطائية رباط وثيق، فهي مجموعة من الأقوال نظمت في أوقات مختلفة..." ولا شك أن أمر هذه الوحدة هو من الدقة بحيث ينبه على ذلك الشيخ فيقول:"يعرف ذلك من اعتنى بتحصيله".

[2]- زروق، شرح الحكم العطائية، ص18.

المواهب" وكان حسن الأخلاق، متجملا جدا، ذا لسان عظيم في كلام القوم يرى أنه ليس في المغاربة من يفهم الطريقة، وقد نحا بشرحه نحو[1] شقاشق الفلاسفة ودقائقهم، فالله أعلم بمراده، ولم يكمل كتابه هذا بل انتهى لنحو ربعه والله أعلم.

و ممن علق عليه أيضا، الشيخ أبو عبد الله القُرا، فصنف فما قام، ولا قعد، ولا كمل، ولا وصل، وكان يدعي على مرأى خارجة عن الأخبار بنبينا– صلى الله عليه وسلم– فامتحن لذلك ومات مرفوضا والعياذ بالله في سنة ثمانمائة واثنين وثمانين، وكذا الشيخ أبو المواهب مات في السنة نفسها، أما الرّماح فمات في وباء سنة ثمانمائة وسبع وثمانين.

و يذكر أن رجلا بالشام يدعى "ابن الصابوني" علق عليه شيئا مال فيه لعلم الكلام ونحوه، وهي طريقة غير مفيدة ولا مخلصة في ذلك[2].

و يمكننا في هذا المقام أن نذكر أن تعاليق المشايخة رضوان الله عليهم جاءت متفاوتة من حيث الطرح، فتباينت الرؤى واختلفت حول حكم ابن عطاء الله السكندري رحمة الله عليه فكانت شروحهم أو تعليقاتهم ذات أثر طيب لا يمكن إنكاره ونجد أن آرائهم قد انصب الكلام فيها لمناسبة ولغير مناسبة كتجميع وإدراج كلام لمشايخة آخرين وكذا اعتمادهم التقرير المختصر بغية عدم الولوج على ما يبعد عن طرحه المدرج للمناقشة وقد نحا البعض الآخر منحى بعيدا عن جادة الحق والصواب في شروحاتهم.

و الجدير بالذكر أن شرح الشيخ الخطيب أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عباد فقد جاء مستوفيا فوائد جمة عظيمة جليلة الشأن نبيلة الغاية.

و نقول في الأخير أن كتاب "الحكم العطائية" كتاب جليل حقق المنفعة لكل شيخ ومريد فقد حوت حكمه إشارات راقية تشد إليها الألباب، فحركت العقول قبل القلوب لما طرقته في أبوابها من عبادات وكذا أخلاق ثم معاملات، كما نلمح ذلك الترابط الوثيق بين حكمه وعلومه، وتناسق حروفه وكلمه، فكانت كل حكمة أو مسألة تكملة لما قبلها أو توطئة لما

[1]- أبو العباس أحمد بن محمد- زروق- الحكم العطائية، ص5.
[2]- المرجع نفسه، ص6.

بعدها، فكانت حكما جامعة نافعة، كيف لا وكلما ذكرناها أو أدرجناها ضمن حديثنا إلا وحلق بنا إلى عوالم بعيدة عن كل سفاسف الأمور وطرقنا بها ذلك الباب التوحيدي العظيم التي احتوته بين تضاعيفها. وكذا تلك الحضرة القدسية، وعالم الإشراق الروحي والفيض الإلهي المقدس كيف لا وهو نشدان لعوالم المعرفة الذاتية ومناجاة للمولى عز وجل والفوز برضاه ولا شيء سواه.

المبحث الثاني: الشهيد البوطي وشرحه للحكم العطائية

أولا: ترجمة عن العلاّمة الشهيد محمّد سعيد رمضان البوطي:

يعتبر العلامة الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي إماما لا يبلغ شأوه ومكانته، ولا يضاهيه ولا يجاريه أحد فهو من أعظم وأجل علماء العصر، شخصية تنيم عن فكر ثاقب، ووعي متأصل، استطاع بعث ذلك المرمى الإسلامي العظيم.

محمد سعيد رمضان البوطي عالم سوري متخصص في العلوم الإسلامية ومن المرجعيات الدينية الهامة على مستوى العالم الإسلامي، اختارته جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم في دورتها الثامنة عام 2004م ليكون شخصية العالم الإسلامي باعتباره "شخصية جمعت تحقيق العلماء وشهرة الأعلام وصاحب فكر موسوعي[1]".

أ- ولادته ونشأته:

ولد البوطي عام 1347هـ الموافق لـ:1929م في قرية "جليكا" التابعة لجزيرة ابن عمر التابعة لجزيرة بوطان والتي تقع على ضفاف نهر دجلة عند نقطة التلاقي بين حدود سوريا والعراق وتركيا، ولما بلغ من العمر أربعة سنوات هاجر مع والده ملاّ رمضان البوطي إلى دمشق في عام 1933م بسبب اضطهاد أتاتورك، توفيت والدته وعمره 13 سنة، تزوج في الثامنة عشر، وله من الأولاد ستة ذكور وبنت واحدة.

ب- أفكاره وآراؤه:

[1]- جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم: د. محمد سعيد رمضان البوطي، الدورة الثامنة.

مثل البوطي التوجه المحافظ لمذاهب أهل السنة الأربعة وكذا عقيدة أهل السنة وفق منهج الأشاعرة، ويعتبر البوطي من المدافعين عن عقيدتهم في وجه الآراء السلفية، وقد ألف في هذا المجال كتابه الموسوم بـ"السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي" وكذا "اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية" كما يعد البوطي من علماء الدين السنة، المتخصصين في العقائد والرد على الفلسفات المادية وقد ألف في ذلك كتبا منها "أوروبا من التقنية إلى الروحانية، مشكلة الجسر المقطوع" و"نقض أوهام المادية الجدلية". وقد هاجم فيه الفكر الشيوعي والإلحادي[1].

جـ- مواقفه السياسية:

أما إذا جئنا إلى الجانب السياسي فقد كانت للبوطي -رحمة الله عليه- علاقة شخصية بحافظ الأسد، هذا الأخير كان يستدعيه بين الحين والآخر، وذلك إثر قراءته لبعض كتب البوطي رحمة الله عليه فمن نتائج لقاء البوطي بالأسد طرق ومعالجة العديد من القضايا نذكر معالجته لقضايا المعاهد الشرعية والإعلام والكتب الإسلاميّة هذا على سبيل المثال لا الحصر. كما سبب وقوفه إلى جانب النظام الحاكم في مواجهة جماعة الإخوان المسلمين كثير من الانتقاد، إذ ظل منذ أحداث مدينة حماة سنة 1982م ينافح عن شرعية حكم عائلة الأسد وعدم جواز الخروج عليها لأن الحاكم فيها لما يصل إلى الكفر البواح "أن يعلن جهرا الكفر وخروجه عن الإسلام[2]" وقد سبب ظهور كتابه "الجهاد في الإسلام" عام 1993م في إعادة الجدل القائم بينه وبين بعض التيارات السياسية ذات التوجهات الإسلامية، بسبب نبذه للعنف في التغيير، وتحريمه للخروج على الحاكم إلا إن ثبت كفره[3].

كان البوطي يبتعد عن السياسة بشكل عام ويحثّ الدعاة على ترك الخوض فيها.[4]

---

[1]- البوطي، نقض المادية الجدلية، الإلحاد في الميزان.
[2]- الحياة: مقتل البوطي....مأساة تورط الشيخ في السياسة! 27مارس 2013م.
[3]- الشرق الأوسط: نظام الأسد والمعارضة يتبادلان التهم...و البوطي منع من السفر قبل اغتياله.
[4]- البوطي يطالب الدعاة بترك السياسة مستشهدا "بمأساة الإرهاب بالجزائر". 10 ماي 2006م.

وكان من موقعي بيان يؤيد قرار الأزهر تجميد الحوار مع الفاتيكان بعد تعليقات للبابا والتي أساءت للمسلمين.[1]

د- مؤلفاته:

كان للبوطي رحمة الله عليه مؤلفات عديدة كان لها التأثير القوي والفعال في جميع شرائح المجتمع العربي والإسلامي، فكانت كتبا قل نظيرها، وكذا سراجا منيرا لكل سالك في درب المنهج القويم.

خلف البوطي أكثر من ستين 60 مؤلفا في شتى المجالات أبرزها:[2]

- البدايات باكورة أعمالي الفكرية.
- المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة.
- برنامج دراسات قرآنية "ثلاثة أجزاء".
- من روائع القرآن الكريم.
- الحكم العطائية شرح وتحليل "أربعة أجزاء" وهو أصل دراستنا وبحثنا
- يغالطونك إذ يقولون.
- أوروبا من التقنية إلى الروحانية، مشكلة الجسر المقطوع بالعربية الإنجليزية.
- كبرى اليقينيات الكونية "وجود الخالق وظيفة المخلوق".
- شخصيات استوقفتني.
- الله أم الإنسان أيهما أقدر على رعاية حقوق الإنسان؟.
- سلسلة أبحاث في القمة.
- قضايا فقهية معاصرة "جزآن".
- الجهاد في الإسلام، كيف نفهمه؟ وكيف نمارسه؟.
- هذه مشكلاتهم.

---

[1]-21 عالما يؤيدون قرار الأزهر بتجميد الحوار مع الفاتيكان. 26جانفي 2011م.

[2]- دار الفكر: كتب د. محمد سعيد رمضان البوطي. 01 أفريل 2013م.

- هذه مشكلاتنا.
- من الفكر والقلب.
- المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني.
- فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، قيض الله لهذا الكتاب من الانتشار ومن إقبال الناس عليه ما لم يقيضه لأي من الكتب الأخرى فقد حمل مسائل عديدة وفتح باب السيرة على مصراعيه. نفع الله به كل مسلم ومريد.[1]
- هذا هو الإسلام، مدخل إلى فهم الجذور، من أنا؟ ولماذا؟ وإلى أين؟ الإسلام سيقدم، فلندع الإسلام نفسه، يتكفل المسلم الصادق في إسلامه والمنطلق في فهمه واعتناقه من الجذور إلى الفروع، بأنه سيقدم له الحلول الحقيقية لسائر المشكلات فقد كانت فيه جولات عميقة المغزى حول الدين الإسلامي الحنيف[2].

هـ- برامج إذاعية وتلفزيونية:

كان للإمام الشهيد البوطي رحمة الله عليه برامج إذاعية وتلفزيونية عالجت موضوعات العقيدة والتوحيد الرباني، فكانت برامج فاعلة لها الأهمية العظيمة في الشريعة والحياة نذكر:

- لا يأتيه الباطل، على قناة شام وقناة صانعوا القرار
- دراسات قرآنية، على القناة الفضائية السورية
- شرح الحكم العطائية، على قناة صوفية.

و- مقتلـه:

[1]- ينظر: محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر، دمشق -سورية- ط11، 1991م، ص7.
[2]- ينظر: محمد سعيد رمضان البوطي، هذا هو الإسلام. مدخل إلى فهم الجذور. من أنا؟ ولماذا؟ وإلى أين؟ دار الفكر، دمشق –سورية، ط1، 1991، ص126.

قتل الشيخ البوطي يوم الخميس في الواحد والعشرين من شهر مارس عام ثلاثة عشر وألفين للميلاد الموافق للتاسع من شهر جمادى الأولى أربع وثلاثين وأربعمائة وألف للهجرة، وذلك أثناء إعطائه درسا دينيا في مسجد الإيمان بحي المزرعة بدمشق، فبحسب الرواية الرسمية، فإن تفجيرا انتحاريا قد أودى بحياة البوطي واثنين أربعين شخصا من بينهم حفيده بالإضافة إلى إصابة أربعة وثمانين شخصا بجروح.

وقد شيع جثمان البوطي يوم السبت في الثالث والعشرين من شهر مارس ثلاثة عشر وألفين للميلاد. من منزله في دمشق وصلي عليه في المسجد الأموي ثم دفن إلى بجانب قبر صلاح الدين الأيوبي المحاذي لقلعة دمشق قرب المسجد الأموي وقد حضر الجنازة ممثلون من إيران ولبنان والأردن[1]. كما أعلن يوم السبت الموافق للثالث والعشرين من شهر مارس ثلاثة عشر وألفين للميلاد يوم حداد عام في سوريا على الشيخ البوطي ومن سقط معه.

إن استشهاد الإمام البوطي –رحمة الله عليه– خسارة كبرى للعلم العربي والإسلامي، فهو الشخصية الدينية المرموقة المعروفة لدى العام والخاص، كيف لا وهو العلاّمة الذي حظي باحترام عدد كبير من الشخصيات والعلماء في عالمنا الإسلامي، لما طرقه في الجانب العقائدي من مسائل وقضايا مهمة في حياة الأفراد والمجتمعات.

[1]- جريدة الغد: تشييع جثمان البوطي في دمشق. 24 مارس 2013م.

مقدمــة

إنّ في هذا الكون ما يشدّ العقول ويأسر الألباب، ففيه آيات عظيمة وحكم جليلة، ففيها ما يأسرنا حقا، إذا ما نحن أمعنا النظر إلى السماء ونجومها المتألقة في عليائها في جنح ظلام حالك، وإلى الجبال وشموخها الباهر، فإذا ما نحن أرجعنا البصر إلى الأرض شدنا إلى روعتها بساطها السندسيّ الأخضر وزهرها الندي الساحر. كلها آيات إن دلت على شيء فهي تدل على عظمة المولى العزيز الخالق. مصداقا لقوله تعالى{ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ {17} وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ {18} وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ {19} وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ {20} فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ}سورة الغاشية.

طالما كانت هذه المعرفة الحقة لتلك العظمة وليدة حب قديم متجدد في آن للمولى جلّ وعلا جلالا وعلوا كبيرا كيف لا وهو صاحب القضاء والقدر، كيف لا وهو صاحب الفضل والمنن والعطايا التي لا تنتهي أبدًا. فما نشهده في عصرنا وعصور سالفة من مظاهر طغيان الماديات الجامحة وكذا أشكال وألوان الحضارة الآسرة، هذه المظاهر وتلك الأشكال التي أخذت الألباب تدريجيا شيئا فشيئا في سلم الرقيّ والحضارة كما يدعُّون، مبعدة إياها عن النهج الديني القويم الذي لا يرتضيه المؤمن العارف لربه المتحدث بمننه ونعمه شرعة ومنهاجا بديلا، من هنا ظهرت مذاهب ومدارس شتى تصب كلها في قالب العقيدة والتّوحيد عساها تحقق تلك الراحة والطمأنينة التي تنشدها، والتي لم ترتض لحب الله جل وعلا حبًّا بديلاً ورضاه رضىً جليلا، فآثرت تلك الفئات الدينية الصوفيّة حياة العزلة والبساطة حياة، وأروقة المساجد ملاذا وسكنا، ومناجاة الإله طلبا للنّجاة.

التصوف علم توحيدي بامتياز له دعامته واتجاهات ومذاهبه والتي اختطّت له تلك الصورة الراقية الفذّة، فهو اتجاه ديني ونفسي وفلسفي ضارب بجذوره في أعماق تراثنا الإسلامي القديم، حيث لم يكن منهجا طارئا في حياتنا الإسلامية. فهو ذلك الطريق العقائدي

التّوحيدي العظيم في مسيرته الخالدة والتي حلّقت في علياء سماء الأمم جميعا على اختلاف دياناتها، كيف لا وهو البحث المضني عن ذلك السر الكوني العظيم وعن سر تلك الروح عسى هذه الأخير تجد ما تصبو إليه في مغادرتها لعالم الأدران والشوائب هذه والتحليق بعيدا عن سفاسف الأمور وتوافهها. إنه جوهر الإفصاح الجلي لتطلع الرّوح إلى مغادرة نفسها والاتحاد بالمولى جل وعلا.

نظرا للأهمية التي تبوأها التصوف في شتى مشارب الأرض، ارتأينا تسليط الضوء عليه من جوانب عدة وإبراز ذلك الجوهر العقائدي العظيم وولوجنا عوالمه بغية سبر أغواره وكنهه، ووقوفنا دراسة وتحليلا عند الحكم العطائيّة هذه الأخيرة؛ التي تعتبر درّة يتيمة وجوهرة ثمينة انبهر بها الداني والقاصي آسرة بذلك العقول والألباب.

أما بخصوص الأسباب التي دفعتنا لاختيار الموضوع فهي طرق تلك الجوانب المهمة في حياة شهيد الأمة الإمام محمد سعيد رمضان البوطي باعتباره من المرجعيات الدينية المرموقة في العالم العربي والإسلامي وكذا ما خلفه من مؤلفات أدبية ودينية على حد السواء، هجر الكثيرين تلك الدرر المهمة الثمينة في الحكم العطائيّة، وكذا إزالة تلك النظرة القاصرة للتصوف والتي طبعها به الجاهلون وتسليط الضوء على الجوانب التوحيدية الراقية فيه، خسارة الأمة الإسلامية للإمام محمد سعيد رمضان البوطي.

فيا ترى ما حقيقة تلك المذاهب الدينية؟ وما هي تطلعاتها ورؤاها؟ ما سر تلك العظمة في كنهها العقائدي الجليل؟ وكذا من هم شيوخها وباعثوها؟ ما سر الأهمية التي حظي بها ذلك المؤلَّف السامي التّليد والمتمثل في الحكم العطائية؟.

أما فيما يخص منهجنا المتبع إن شاء الله تعالى ونظرا لما تقتضيه طبيعة موضوعنا المدرج للدراسة والتحليل فهو الإجراء الوصفي التحليلي.

وتحقيقا لما نأمل ونبتغي من نشر للفائدة ولو بصورة متواضعة بسيطة، فقد ارتأينا تقسيم مادة بحثنا إلى فصل تمهيدي حمل عنوان "تاج الدين ابن عطاء الله السكندري ومحمد سعيد

رمضان البوطي في شرح الحكم ترجمة وتوصيف" تطرقنا فيه إلى حياة كل من الشّيخين الجليلين وكذا كلمة عن الحكم العطائية. ثم فصلا ثانيا حمل عنوان "نفحات صوفيّة سامية" تضمنت نثرا ونظما صوفيا وكذا فصلا أخيرا كان تطبيقا لأنموذجنا المختار ألا وهو الحكم العطائيّة. ضف إلى ذلك مقدمة وخاتمة.

أما بخصوص الدراسات السابقة نذكر شرح الشيخ الخطيب أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن مالك بن إبراهيم بن يحي بن عباد، وكذا شرح الشيخ أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي المعروف بزروق، وشرح الشيخ أبو المواهب محمد المعروف "ابن زغوان".

وقد اعتمدنا في بحثنا المتواضع على مجموعة من المصادر والمراجع التوحيدية الجليلة لعل أهمها وأبرزها على الإطلاق: الحكم العطائيّة شرح وتحليل الإمام محمد سعيد رمضان البوطي في مجلداتها الأربعة وكذا شرح كل من الشيخ أحمد بن محمّد الشهير زروق وكذا عبد المجيد الشرنوبي دون أن ننسى الكتاب الجليل الموسوم بلطائف المنن لصاحبه الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله السكندري ومجموعة كتب تراثية أخرى نذكر منها: مفتاح الشهود في مظاهر الوجود للشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي وكذا الرسالة القشيرية في علم التصوف للشيخ أبو القاسم القشيري النيسابوري وكتاب فقه السيرة النبوية للإمام محمد سعيد رمضان البوطي رحمة الله عليه.

وقد واجهتنا صعوبات جمة في تحصيل المصادر والمراجع التي تخص دراستنا.

ونأمل من المولى عز وجل أن يكون بحثنا حاملا بين تضاعيفه ولو القدر اليسير من الفائدة الخالصة لوجهه جل وعلا جلالا وعلوا كبيرا.

ولا يسعنا في الأخير إلا أن نتقدم إلى أستاذنا الفاضل "واسيني بن عبد الله" بوافر الاحترام والتقدير والشكر الجزيل على كرم مساعدته وتوجيهاته الرشيدة، وجزاه الله عنا كريم الجزاء.

المناجاة الإلاهية:

إلاهي مني ما يليق بلومي، و منك يليق بكرمك

أي مني ما يليق بلومي الذي هو وصف العبيد من مبارزتك بالذنوب، و منك ما يليق بكرمك، الذي هو وصف الربوبية من التجاوز و العفو و ستر العيوب، و هذا الكلام من الطف آداب الدعاء، و لا يخيب عبد به إلى الله التجأ.

إلاهي ما أقربك مني، و ما أبعدني عنك !

أي ما أشد قربك مني للإحاطة و الاقتدار، و ما أبعدني عنك بصفاتي التي لا تليق للقرب من العزيز الغفار ثم ترقى فقال:

إلاهي ! ما أرافك بي ! فما الذي يحجبني عنك؟

أي ما أشد رأفتك بي التي أفنى بها عن رؤية نفسي، فما الذي يحجبني عنك، أي فلا حاجب لي عن الرب المعبود، مادامت في هذا الشهود.

إلاهي ! كيف أخيب و أنت أملي، أم كيف أهان و عليك متكلي؟

أي كيف تحصل لي خيبة و عدم ظفر بالمقصود و أنت أملي الذي عطاؤك غير محدود؟

أم كيف يحصل الهوان لي و عليك يا قوي يا متين متكلي؟

إلاهي ! قد دفعتني العوالم إليك، و قد أوقفني علمي بكرمك عليك.

أي قد دفعتني العوالم– التي استوحشت منها عجزها و فقرها إليك، فكلما توجهت إلى أحد ليعطيني أو ينصرني يقول: لا معطي و لا ناصر إلا الله، فجعلت معتمدي عليك فإن الكريم لا تتخطاه الآمال. أسأل الله أن يصلح لنا الحال و المال.

إلاهي رجوتك:

يا الله يا حميد يا مجيد، يا الله يا كريم يا بر يا رحيم، يا الله يا قوي يا متين، هب لي من رحمتك ما أحمدك به، فأكون من المؤمنين، و ارزقني من لطائف العز ما أكون به قويا متينا حاملا محمولا في العالمين، و هب لي من كرمك ما أكون به بارا تقيا من الصالحين، يا رحيم، يا لطيف، ألطف بي لطفا لا يدركه وهم الواهمين.

إلاهي وجدتك رحيما حيث لا أرجوك، فكيف لا أجدك ناصرا و أنا أرجوك، من لي إذا قطعتني؟ و من لي إذا لم ترحمني؟ فصلني من حيث تعلم و لا أعلم إنك على كل شيء قدير.

و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه و سلم تسليما.

فهرس المحتويات

كلمة شكر، عرفان وامتنان

مقدّمة .....أ،ب،ج

الفصل التمهيدي: تاج الدِّين ابن عطاء الله السّكندريّ ومحمّد سعيد رمضان البوطي في شرح الحكم "ترجمة وتوصيف"

المبحث الأول: تاج الدين ابن عطاء الله السكندري و حكمه.....5

أوّلا: ترجمة موجزة عن ابن عطاء الله السكندري.....5

أ- أصله و نسبه 5

ب- مولده و نشأته.....5

جـ- علومه ومعارفه.....6

د- أقوالـه.....6

هـ- شيوخـه 9

و- مؤلفاتـه 11

ز- وفاتـه.....12

ثانيا: كلمة عن الحكم العطائية 13

أ - تعاريفها و تصانيفها 13

ب- محاورهـا 14

جـ - شروح المشايخة للحكم وأقوالهم فيها.....14

المبحث الثاني: الشّهيد البوطي و شرحه للحكم العطائية" 16

أولا: ترجمة عن العلاّمة الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي 16

أ- ولادته و نشأتـه 17

ب- أفكاره و آراؤه 17

جـ - مواقفه السياسية 17

د- مؤلفاتـه 18

هـ- برامج إذاعية و تلفزيونية 20

و- مقتله 20

الفصل الأول: نفحات صوفيّة سامية

المبحث الأول: مصطلحات التصوّف و الصوفيّة 22

أولا: مصطلحات التصوف 22

أ-أهل الصّفة 22

ب-الصّوفي 23

جـ-الأدب 24

د-الفناء 25

هـ-البقاء 26

و-السّكر 27

ز-الصّحو 28

ثانيا: التّجربة الصوفيّة 28

أ-ظهور التصوّف الإسلامي 29

ب-تعريف التصوّف 30

جـ-مراحل التطوّر الصّوفي 60

د-أركان التصوف 32

المبحث الثاني: فنون و أغراض صوفيّة 34

1- الأدعية: فصل من دعاء الشيخ أبي الحسن الشاذلي-رضي الله تعالى عنه-.....34

2- الرّسائل: رسالة صوفيّة رمزية من إنشاء أبي عبد الله محمد بن يوسف بن الأبّار السبتي 35

3- النّظم: أبيات صوفية من ديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وكرم وجهه. 38

الفصل الثاني: سمات صُوفية في أدب أعجوبة التصوف محمّد سعيد رمضان البوطي -رحمة الله عليه-

المبحث الأول: باب التّوحيد 42

الحكمة الأولى: "من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرّجاء عند وجود الزلل". 42

الحكمة الثانية: "إرادتك التجريدَ مع إقامة الله إيّاك في الأسباب من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسبابَ مع إقامة الله إياك في التّجريد انحطاط عن الهمة العليّة ". 44
الحكمة الثالثة: "سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار".....48
المبحث الثاني: باب العبادات. **51**
الحكمة الأولى:" من علامات موت القلب عدم الحزن على ما فاتك من الموافِقَات، وترك النَّدم على ما فعلته من وجود الزلاّت". 51
الحكمة الثانية:" لا يعظم الذّنب عندك عظمة تصدُّك عن حسن الظن بالله تعالى، فإن من عرف ربَّه استصغر في جنب كرمه ذنبه". 54
الحكمة الثالثة: "لا صغيرة إذا قابلك عدله، ولا كبيرة إذا واجهك فضله". 57
المبحث الثالث: باب العقائد **62**
الحكمة الأولى: "الغافل إذا أصبح ينظر ماذا يفعل، والعاقل ينظر ما يفعل الله به". 62
الحكمة الثانية:" إنّما يستوحش العُبّاد والزُهّاد من كل شيء، لغيبتهم، عن الله في كل شيء، فلو شهدوه في كل شيء لم يستوحشوا من شيء". 66
الحكمة الثالثة:" أمرك في هذه الدّار بالنظر في مكوَّناتِه، وسيكشف لك في تلك الدّار عن كمال ذاته". 70
المبحث الرابع: باب الأخلاق **74**
الحكمة الأولى: "لا يُخرِج الشّهوة من القلب إلاَّ خوف مزعج أو شوق مقلق". 74
الحكمة الثانية: "كما لا يحب العمل المشترك، كذلك لا يحب القلب المشترك، العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يُقبِل عليه". 77
الحكمة الثالثة:" أنوار أُذِن لها في الوصول، وأنوار أُذِن لها في الدخول، ربّما وردت عليك الأنوار، فوجدت القلب محشوًّا بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت".....81
الخاتمة 86
قائمة المصادر والمراجع
فهرس المحتويات

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

الحديث النبوي الشريف

أ- المصادر والمراجع:

- أبو العبّاس أحمد بن محمد -زروق- الحكم العطائيّة، تحقيق ودراسة محمد بن علي البدري، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط2، 2005م.

- أبو القاسم عبد الكريم القشيري النيسابوري، الرسالة القشيرية، في علم التصوف، تحقيق وإعداد معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دط، 2007م.

- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الزندي، غيث المواهب العليّة في شرح الحكم العطائيّة، اعتنى به أبو الخير، دار الخير، دمشق، بيروت، ط1، 2004م.

- أحمد بن محي الدين بن مصطفى الحسيني الجزائري، نثر الدرّ وبسطه في بيان كون العلم نقطة، تقريظ واطلاع لنخبة من العلماء، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.

- أحمد بن مصطفى العلاّوي، معراج السالكين ونهاية الواصلين، المطبعة العلاويّة، مستغانم، ط2، 1992م.

- أسعد السحمراني، التصوف منشؤه ومصطلحاته، دار النفائس، بيروت- لبنان، ط2، 2000م.

- تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله السكندريّ، لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه الشاذلي أبي الحسن، وضع حواشيه وخرج أحاديثه خليل المنصور، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، دت.

- ديوان أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وكرّم وجهه-، جمع وترتيب عبد العزيز الكرم، ط1، 1988م.

- زروق ، شرح الحكم العطائية ، بيت الحكمة، دط، دت.

- زين العابدين شمس الدين نجم، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، دار الكتب المصرية، ط1، 2006م،

- سفيان زدادقة ، الحقيقة والسّراب قراءة في البعد الصوفيّ عند أدونيس مرجعا وممارسة، منشورات الاختلاف ،الجزائر العاصمة- الجزائر، ط1، 2008م.

- سيد أمير علي، روح الإسلام، نقلا إلى العربية عمر الديراوي، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، 1980م.

- عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفيّة ومدارسها، مكتبة مدبولي، دط، 1999م.

- عبد السلام غرميني، المدارس الصوفيّة المغربيّة والأندلسيّة في القرن السّادس الهجري، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000م.

- عبد المجيد الشرنوبي، شرح الحكم العطائيّة، علق عليه عبد الفتاح البزم، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط1، 1991م.

- قارة مبروك بن صالح، الدعاء مخ العبادة، دار علي بن زيد للطباعة والنشر والتوزيع، بسكرة، الجزائر، د ط، 2013م.

- قدور رحماني، أوراق حول الشعر والتصوف مع قاموس بأهم المصطلحات الصوفيّة، البديع للنشر والخدمات الإعلامية، القبة، الجزائر، دط، دت.

- محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائيّة شرح وتحليل، دار الفكر، دمشق، ط1، 2001م، ج1، ج2، ج3، ج4.

- محمد سعيد رمضان البوطي، السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، دار الفكر ، دمشق- سوريا، ط1، 1988م.

- محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الرّاشدة، دار الفكر ، دمشق- سورية، ط11، 1991م.

– محمد سعيد رمضان البوطي، هذا هو الإسلام، مدخل إلى فهم الجذور، من أنا؟ ولماذا؟ والى أين؟ دار الفكر، دمشق– سورية، ط1، 1991م.

– محمد مرتاض، التجربة الصوفيّة عند شعراء المغرب العربي في الخمسية الهجرية الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، دط، 2009م.

– محي الدين بن عربي، الفتوحات، ج4.

– محي الدين محمد بن عربي، عنقاء مغرب في ختم الأولياء وشمس المغرب، اعتنى بها إبراهيم الكياني الزرقاوي، دار الكتب العلميّة، بيروت– لبنان، ط1، 2005م.

– الملتقى الوطني الأول حول التصوف في الأدب الشعبي، دورة الشاعر الشيخ أحمد بن معطار، التصوف في الأدب الشعبي الجزائري، منشورات الرّابطة الوطنية للأدب الشعبي.

ب– الجرائد:

– جريدة الغد، تشييع جثمان البوطي في دمشق، عدد 24 مارس 2013م.

ج– موقع الانترنت:

- http: // alhayat. Com/ opinionsDetails/495980.

كلمة شكر وتقدير

قال الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾.

سورة النحل، الآية 53

الحمد لله الذي فجّر ينابيع الحكمة من أفئدة المؤمنين الصّادقين، ونوّر بصائر الرّاغبين والطّالبين، وشرح صدور المتضرعين الخاشعين.

أحمد الله حمدا يكافئ عظيم كرمه ومننه، وأستغفره وأتوب إليه من كل ذنب، وأصلي على سيّد البريّة وصفوة الخلق محمّدًا طه الأمين، وعلى آله وأصحابه الطّاهرين وأسلّم عليه وعليهم تسليما كثيرا.

أشكرك ربّي شكرا عظيما على إمدادك لي بالقوة والصّبر والعزم على تتمّة هذا العمل فالشّكر لك ربّي أوّلا وأخيرًا، وعملا بقوله –صلى الله عليه وسلم–: " من لم يشكر الناس لم يشكر الله". فإنني أتقدم بأصدق معاني الشّكر والعرفان إلى كلّ أساتذتنا ومعلّمينا وأخصّ بالذكر في هذا المقام الأستاذ الفاضل: واسيني بن عبد الله الذي لم يبخل علينا بنصائحه وتوجيهاته القيّمة والذي تحمَّل على عاتقه عبء الإشراف على بحثنا.

كما أتقدم بوافر الشكر وخالص التحيَّة والودّ والاحترام إلى أبتي العزيز الحاج بن السنوسي، وشكر موصول أيضا للأستاذ الفاضل حديبي المداني على إرشاداته الكريمة.

كما أتوجّه بخالص الشُّكر والامتنان وفائق الاحترام للأخ والأستاذ الفاضل جعيجع محمّد، وشكر موصول، للأخ المحترم خليفة، وشكر جزيل لمعلّمي وأستاذي مرزوقي المختار، وكل من قدّم لي يد المساعدة من قريب أو بعيد، فجزى الله جميع معلّمينا وأساتذتنا وإخوتنا، عنّا كريم الجزاء.

ملخص المذكّرة:

حظي التصوُّف باهتمام الأمم قاطبة على اختلاف دياناتها وتعدد مشاربها، طالما عكست رؤى مريديه وباعثيه ما يستتر في بواطن ذواتهم، فكانت مثالا رائدا في التصوّف على مرّ العصور والأزمنة.

ونخص بالذكر في هذا المقال التصوف الإسلامي؛ والذي كان ذلك الطريق المميز في عبادة المولى عزّ وجلّ والسلوك والرؤية، وكذا تلك الرحلة الطويلة الشاقة والمبنية على المعاناة والمكابدة تحقيقا لتلك الرغبة الجامحة؛ والمتمثلة في إدراك كوامن وأسرار العوالم الخفية وما يدور في فلك الكون العظيم وانسلاخ الذات عن ذاتها والاتحاد بالذات الإلهية.

التصوّف ليس تلك الشعوذة ولا تلك الخزعبلات، والتي ألصقها به الجاهلون أصحاب النظرة القاصرة، والذين أخذوا من التصوف قشوره. بل التصوف علم توحيدي قائم بذاته وهو ذلك الأنموذج الراقي والذي اتسم بطابع القلق والحيرة والتساؤل هذا الأخير تسدّه المعرفة اللدنية الحقة وفلسفة تهذيبية أخلاقية تتزين النفس بها، وهو صقل للروح وتهيئتها بغية ولوجها واستغراقها في عوالم الصفاء والطهر والتي كانت تنشدها.

التصوّف مذهب ديني بامتياز، وفن بأتم ما تحمله الكلمة من معنى تفرعت عنه موضوعات ذات محتوى رفيع المستوى من الناحية الفنية نثرا ونظما فنيا رائقا جامعا لجواهر ومكنونات التجربة الصوفية اللدنية.

أما الحكم العطائية هي أروع ما جاد به الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله السكندري، نثرا على لسان أهل الطريقة، منتقاة من الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة، استطاع صاحبها بفكره الديني الراقي وصدق معرفته الحقة بالمولى جلّ وعلا من خلال مؤلفه الحكم العطائية السمو بنا في عوالم النقاء والطهر والصفاء، وكذا الغوص في أعماق بحار الشريعة والتوحيد والنهج الإسلامي القويم، فكانت حقا حكما تخشع لها الأبصار وتحن لها القلوب. ويذعن لها المؤمنون حقا.

أما شرح الإمام محمد سعيد رمضان البوطي زاد إلى أسر ألبابنا أسرا وإعجابا بجواهر هذه الحكم من خلال ما تقدم من شرحه الوافي لتلك الجوانب الخفية والتوحيدية الراقية في آن.

Research Summary:

the Sufismhas received interest of all nations of different religions and the multiplicity of backgrounds, As long reflected the visions of his attendants what is hidden in the soles of themselves, So it Was a leading example in Sufism throughout the ages and times. we mention special in this article, the Islamic Sufism ; Which was featured way in the cult of God Almighty As well as that long arduous journey, which is based on the suffering and toil to realize that unquenchable desire; the perception of self- containe and secrets of the hidden worlds and What is going on in the orbit of the great universe And self-alienation from itself and the Union in particular the divine.

the Sufism is not that juggling nor those superstitions,
as the ignorant call it ,the owners of distortion myopic, who took the Sufism's peels.

but the Sufism is a unifying science that stands alone, It is the upscale model Which was characterized by the nature of anxiety and confusion and wonder The latter is Dominated by the true Religious knowledge and a moral philosophy festooned with a self-made, A refinement of the spirit and configured it I With a view to their access and unhappy in the worlds of serenity The purity which was sung.

The Sufism is a religious doctrine par excellence, and an art with the fullest sense of the word Branched about topics of high-level content Technically prose And systems technically Raiqa inclusive of Jewels Mknunat and mystical experience Alldnih.

The ruling is the most wonderful thing Attaúah serious by Sheikh Taj al-Din Ibn 'Ata Allah Alexandrian, Prose on the lips of the people of the way, Selected from the Holy Book and the Sunnah, Owner managed his thought religious upscale Believe and know the true Bamoly Almighty During the rule of the author Attaúah Highness us at worlds purity, purity serenity, as dive into the depths of the seas and uniformity of sharia and Islamic orthodox approach, was really a judgment subject and her nostalgic hearts. The bow has really believers.

The explanation of Imam Muhammad Said Ramadan al-Booty increased to the families of the pope' families and admiration for jewels of this rule through the above explained adequately to those aspects hidden in the high –end monotheistic Ann.

الفصل التمهيدي

تاج الدِّين بن عطاء الله السّكندريّ ومحمّد سعيد رمضان البوطي في شرح الحكم "ترجمة وتوصيف"

المبحث الأول: تاج الدين بن عطاء الله السكندري و حكمه

أولا: ترجمة موجزة عن بن عطاء الله السكندري

أ- أصله و نسبه

ب- مولده و نشأته

جـ- علومه ومعارفه

د- أقوالـه

هـ- شيوخـه

و- مؤلفاتـه

ز- وفاتـه

ثانيا: كلمة عن الحكم العطائية

أ - تعاريفها و تصانيفها

ب- محاورهـا

جـ - شروح المشايخة للحكم وأقوالهم فيها

المبحث الثاني: الشّهيد البوطي و شرحه للحكم العطائية"

أولا: ترجمة عن العلاّمة الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي

أ- ولادته و نشأتـه

ب- أفكاره و آراؤه

جـ - مواقفه السياسية

د- مؤلفاتـه

هـ- برامج إذاعية و تلفزيونية

و- مقتله

الفصل الأول

نفحات صوفيّة ساميـة

المبحث الأول: مصطلحات التصوّف والصوفيّة

أولا: مصطلحات التصوف

أ-أهل الصّفة

ب-الصّوفي

جـ-الأدب

د-الفناء

هـ-البقاء

و-السّكر

ز-الصّحو

ثانيا: التّجربة الصوفيّة

أ-ظهور التصوّف الإسلامي

ب-تعريف التصوف

جـ-مراحل التطوّر الصوّفي

د-أركان التصوف

المبحث الثاني: فنون و أغراض صوفيّة

1. **الأدعية:** فصل من دعاء الشيخ أبي الحسن الشاذلي-رضي الله عنه-
2. **الرّسائل:** رسالة صوفيّة رمزية من إنشاء أبي عبد الله محمد بن يوسف بن الأبّار السبتي.
3. **النّظم:** أبيات صوفيّة من ديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وكرم وجهه.

الفصل الثاني: سمات صُوفية في أدب أعجوبة التصوف محمّد سعيد رمضان البوطي –رحمة الله عليه–

المبحث الأول: باب التّوحيد

الحكمة الأولى: "من علامة الاعتماد على العمل،نقصان الرّجاء عند وجود الزلل".

الحكمة الثانية: "إرادتك التجريدَ مع إقامة الله إيّاك في الأسباب من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسبابَ مع إقامة الله إياك في التّجريد انحطاط عن الهمة العليّة ".

الحكمة الثالثة: "سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار".

المبحث الثاني: باب العبادات.

الحكمة الأولى:" من علامات موت القلب عدم الحزن على ما فاتك من الموافِقَات، وترك النَّدم على ما فعلته من وجود الزلاّت".

الحكمة الثانية:" لا يعظم الذّنب عندك عظمة تصدُّك عن حسن الظن بالله تعالى، فإن من عرف ربَّه استصغر في جنب كرمه ذنبه".

الحكمة الثالثة: "لا صغيرة إذا قابلك عدله، ولا كبيرة إذا واجهك فضله".

المبحث الثالث: باب العقائد

الحكمة الأولى: "الغافل إذا أصبح ينظر ماذا يفعل، والعاقل ينظر ما يفعل الله به".

الحكمة الثانية:" إنّما يستوحش العُباد والزُهاد من كل شيء، لغيبتهم، عن الله في كل شيء، فلو شهدوه في كل شيء لم يستوحشوا من شيء".

الحكمة الثالثة:" أمرك في هذه الدّار بالنظر في مكوَّناتِه، وسيكشف لك في تلك الدّار عن كمال ذاته".

المبحث الرابع: باب الأخلاق

الحكمة الأولى:" لا يُخرِج الشّهوة من القلب إلاَّ خوف مزعج أو شوق مقلق".

الحكمة الثانية:" كما لا يحبّ العمل المشترك، كذلك لا يحب القلب المشترك، العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يُقبِل عليه".

الحكمة الثالثة:" أنوار أُذِن لها في الوصول، وأنوار أُذِن لها في الدخول، ربّما وردت عليك الأنوار، فوجدت القلب محشوًّا بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت".

جامعة المسيلة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

طور الماستر

العنوان

إضاءات وتجليّات صوفيّة في أدب محمّد سعيد رمضان البوطي – شعرا ونثرا –

شرح الحكم العطائيّة "أنموذجا"

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر تخصص: أدب عربي حديث

إعداد الطالبة: **إشراف الأستاذ:**

– خديجة بن عاشور **– واسيني بن عبد الله**

السنة الجامعية:2013– 2014

الإهـداء

إلى البدر ليلة اكتماله، إلى النّجم الساطع في عليائه، إلى نبع الحنان الذي لا ينضب أبدًا: إليك حبيبتي أمي.

إلى بحر الجود والكرم، إلى من بعث فيّ الأمل، إلى من قاسمني جهود هذه المذكّرة، إلى سندي وعضدي في هذه الحياة إلى ملهمي: إليك أبي الحبيب "الحاج بن السنوسي"

إلى ورود الندى وعبق الياسمين إلى إخوتي: سعاد، دليلة، زينب، عزيز، وهيبة، أمُّونة، دون أن أنسى المدلل زيزو.

إلى روح أخي الغالي: رابح.

إلى روح خالتي: الموفقيَّة

إلى جدتيّ العزيزتين أطال الله في عمرهما.

إلى صديقتي المخلصة الوفيَّة "سليمة حديبي"

إلى صديقاتي اللَّواتي جمعني القدر بهم: مسعودة، حفيظة، نسيمة، بسمة، سميّة، سامية، نادية، شهرزاد، خديجة، مرزاقة.

إلى جاراتي: وهيبة، عودة، فاطنة.

إلى زملائي وزميلاتي في مدرسة هواري أحمد.

إلى كل الإخوة العاملين في مكتبة الهدى. أخص بالذكر الأخ الوافي والأخ نورالدين.

إلى الأخوين الفاضلين: محمد وخليفة.

إلى الأخ الفاضل: الحاج السّعدي عبد الصمد.

إلى كل العاملين بمكتبة "ثانوية سيدي عامر".

إلى كل العاملين بمسجد خباب بن الأرث بمدينة المسيلة.

إلى كل سكان وأهل مدينة المسيلة الطيِّبين.

إلى كل الطلبة والطالبات سنة ثانية ماستر "دفعة 2014".

إلى كل أبناء هذا الوطن العزيز الغالي.

إلى كل من نسيهم قلمي وحفل بذكرهم وجداني وقلبي.

خاتمــة

وختاما ما يمكن إجماله من خلال ما طرقناه وناقشناه في الفصول السّالفة هو أن التصوف لم يكن وليد ظروف معينة أو طارئة أملتها مواقف بعينها، بل هو مذهب ديني فلسفي نفسي له جذور موغلة في التُّراث العربي الإسلامي منذ سالف العصور، وكان الجانب العقائدي دعامة أساسية وداعيا مهما من دواعيه ومرتكزاته.

– الغرض الجوهري للتصوف هو إخلاص العبادة للمولى عزّ وجلّ، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ سورة الذاريات، الآية: 56.

– التصوف ترويح القلوب بمراوح الصفاء، وتجليل الخواطر بأردية الوفاء، والتخلص بالسخاء والبشر في اللقاء.

– التصوّف شأنه شأن سائر الفنون له مصطلحاته ومفهوماته، وكذا مراحله وتطوراته.

– التجربة الصّوفية كما قيل: "تجربة وجدانيّة جوانية، وهي بهذا الاعتبار لا تخضع للتعريف المنطقي الذي يراد له أن يكون جامعا مانعا، بل تبدو التجارب الصوفية وكأنها جزر منعزلة ليس بينها رابط بسبب من أنها تجربة للإنسان المتفرّد".

– إدراج المشايخة الصوفية للّغة الرمزية الغامضة في محاوراتهم والتي كانت مدّعاة لتشبيه التصوّف بالموت.

أما إذا جئنا إلى الحكم العطائية فهذا الأخير مُؤلف جمع جلال الألفاظ ورقي المعاني.

– تعتبر الحكم العطائية صفوة ما ألف الشيخ الجليل تاج الدّين بن عطاء الله السّكندري.

– تنمّ الحكم عن شخصية مؤلفها تاج الدين بن عطاء الله هذا الأخير صاحب فكر ديني متأصل وصلة متينة بالمولى عز وجل لا يمكن أن تؤثر أي من سفاسف الأمور وعوارض الأشياء عليها.

– كانت الحكم تُرجمانًا صادقًا لصفاء ورقي روح صاحبها تاج الدّين بن عطاء الله السّكندري.

– الحكم العطائية استقاها صاحبها تاج الدّين من الكتاب والسنة.

– حوت الحكم بين تضاعيفها العلم الجليل، والخير العميم.

– الحكم درّة يتيمة وجوهرة ثمينة، شدّت إليها الألباب، اطّلع على محتواها التوحيدي الراقي القاصي والدّاني.

– كشفت الحكم النُّقاب عن العديد من المفاهيم التوحيدية الهامة في حياة الأفراد والجماعات.

– الحكم العطائية كانت ولا زالت سراجا وهَّاجًا لكل سالك ومريد للنّهج التوحيدي القويم.

– حملت الحكم بين تضاعيفها كوامن أسرار الأبدان والنّفوس.

– مؤلَّف الحكم العطائية تضمن مقاصد إحياء علوم الدين والشريعة وكذا جاءت معانيها رقيقة راقية في الآن ذاته، وكذا تناسب حروفه وكلمه حيث كان داعيا مهما لانتشارها وذيوعها وتناول الشراح لها بالدراسة والتحليل.

– تناولها العديد من المشايخة بالدّراسة والتّحليل، على سبيل المثال لا الحصر شرح الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد الشهير بزرّوق.

– أبرزت الحكم العطائية ذلك الوعي الديني الملتزم، والفكر الموسوعي الثاقب للإمام الشهيد محمّد سعيد رمضان البوطي، والذي كان له الفضل العظيم في دراسة الحكم وتحليلها فزادها جمالا لمبناها وجلالا لمعناها فكانت دراسة وافية شافية.

– مثل البوطي التوجه المحافظ لمذاهب أهل السنة الأربعة وعقيدة أهل السنة وفق منهج الأشاعرة.

– شخصية تنم عن فكر ثاقب وموسوعي ورؤى عميقة متأصلة واعية.

– شخصية حظيت باهتمام كبار علماء العالم وشخصياته كيف لا وهو صاحب التأثير الفعال والقوي في طبقات المجتمع العربي والإسلامي قاطبة في فئاته العمرية المتباينة.

وأخيرا نقول أنه من خلال ما تقدم في بحثنا يبقى مقدمة لتساؤلات وبحوث أخرى فكلّ إجابة حافلة بالعديد من التساؤلات وهذه هي طبيعة البحوث والدّراسات.

كما نرجو من المولى جلَّ وعلا أن يكون عملنا خالصا لوجهه الكريم.